الفصل السادس

اللغـــــة

١ ــ بنية اللغة وفكرة الوسطية :

قضية الأضـــداد تفضى الى فكرة الوسطية فى اللغـــة العربية ، فالأبيض والأسود يجتمعان فى لفظة « الجـــون » ، والليل والنهار فى « الصريم » ، والعطشان والريان فى « الناهل » ، والظلمة والضوء فى « السدفة » ، والســـائل والمعطى فى « الجادى » ، والقوة والضعف فى « المنة » ، وغير ذلك من ألفاظ ليست من القلة حتى نظن أنها من بقايا اللهجات ، التى تأخذ سبيلها الى الانقراض ، ولكنها من الكثرة ما يجعلها تمثل ظاهرة فى اللغة العربيـــة تحتاج الى تفسير .

وهى ظاهرة لا تدل على فقر فى الألفاظ ، فاللغة العربية غنية بألفاظها ، وتتميز أيضا بظاهرة الترادف ، التى تجعل مثلا للأســـد خمسين ومائة اسم ، وللحية مائتين ، وللحجر سبعين اسما (١) .

ولا تؤدى هذه الظاهرة الى اختلاط فى التفكير ، يدل على أن اللغة العربية تفتقر الى التحديد ، فمعانى الألفاظ كما يشرح السيوطى وهو يرد هذا الزعم (٢) تفهم من سياق الكلام ، فجاز وقوع اللفظة الواحدة على المعنيين المتضادين ، لأنه يتقدمهما ويأتى بعدهمـــا ما يدل على خصوصية أحد المعنيين دون الآخر ، ويضرب مثلا على ذلك بقول الشاعر :

---

(١) الصاحبى ص ١٥

(٢) المزهر ٣٩٧/٢ والسيوطى هو عبد الرحمن جلال الدين بن أبى بكر ، من نحاة مصر توفى سنة ٩١١ هـ .

كل شيء ما خـلا المـوت جلل

والفتى يسـعى ويلهيـه الأمـل

فالمعنى الذى يتضمنه البيت يدل على أن المراد من لفظ « جلل » هو « اليسير » فكل شيء يسير الا الموت ، ولا يتبادر الى الذهن المعنى الآخر لهذا اللفظ ، فلا يظن أحـد أن لبيدا الشـاعر يعنى أن كل شيء عظيم الا المـوت •

فظاهرة الاضداد لا يمكن أن تفسر بتعدد اللهجات ، فان اللهجات متى تسربت الى اللغة المشتركة ، تصبح جزءا منها ، وتخضع لنظامها ومعانيها ، وتنسلخ عن مصادرها الأولى ، ولا يمكن أن تعد ظاهرة الأضداد أيضا فقرا فى الألفاظ ، أو اضطرابا فى المعانى ، ولكنها تضرب بجذور عميقة فى التركيبة العربية التى تسمح بتجاور الأضداد ، كما يتجاور الليل والنهار ، والخصب والجدب ، والخوف والأمن ، وكمـا يمتزج البحران ، هـذا عذب فرات سائغ شرابه ، وهذا ملح أجاج •

ان علاقة التضاد لا تقل فى أهميتها عن علاقة التماثل ، لأنها جزء من نظرة العربى ، غرستها البيئة (الطبيعية) وأكدها الاسلام (التاريخ) ، وعبرت عنها اللغة (التطبيق) ، فالعربى الذى ينظر الى الأشياء بعينين ، ويفكر بقلبين ، والذى مثله مثل ملك ، نصفه من ثلج ، ونصفه من نار ، لا الثلج يطفىء النار ولا النار تذيب الثلج ، يمكن أن يخترع كلمة تدل فى وقت واحـد على الأبيض والأسـود ، أو على الليل والنهار ، أو على الجود والبخل •

ان المعانى المتضـادة لست متنافرة أو متقاطعة ، فهناك علاقـة ما بينها ، فكلمة الليل تذكر بالنهار ، والخير يذكر بالشر ، فاجتماعهما فى لفظ واحـد هو ايحاء بتلك النظرة المركبة ، انهما يتجاوران فيصيران كالشيء الواحد ، ولأمر ما ذكر بعضهم ، كمـا يشرح السيوطى ، ان

المعنيين يرجعان الى أصل واحد « فمن ذلك الصريم يقال لليل صريم ، وللنهار صريم ، لأن الليل ينصرم من النهار والنهار ينصرم من الليل ، فأصل المعنيين من باب واحد وهو القطع ، وكذلك الصارخ : المغيث والصارخ : المستغيث ، سميا بذلك لأن المغيث يصرخ بالاستغاثة ، فأصلهما من باب واحد ، وكذلك السدفة الظلمة ، والسدفة الضوء ، سميا بذلك ، لأن أصل السدفة الستر ، فكأن النهار اذا أقبل ستر ضؤوه ظلمة الليل ، وكأن الليل اذا أقبل سترت ظلمته ضوء النهار » (١) ، وقال « وبعضهم يجعل السدفة اختلاط الضوء والظلمة معا ، كوقت ما بين صلاة الفجر الى الاسفار » (٢) .

* * *

ان الناظر فى ألفاظ الألوان فى اللغة العربية يلاحظ ظاهرتين :

الأولى ان ألفاظا كثيرة تعبر عن الاضداد ، فهى تفيد الأسود ، وتفيد الأبيض فى الوقت نفسه ، فيقال ، ابهار الليل ، تراكبت ظلمته وابهيرار الليل : طلوع نجومه ، والقهد البيض من أولاد الظباء والبقر أو هى غنم سود ، وأديم الليل ظلمته وأديم النهار بياضه ، والغراب طائر أسود ، والمغرب هو الصبح لبياضه ، والعفرة غبرة فى حمرة ، وثريد أعفر مبيض ، والاسحم هو الأسود أو هو الكلأ الأبيض ، والسدفة هى الظلمة أو هى الضوء ، والبهم لون احد لا يخالطه غيره سوادا كان أو بياضا ، والجون هو الأسود أو الأبيض ، والأحم قد يطلق على الأسود وقيل هو الأبيض ، والحر سواد فى ظاهر أذن الفرس أو هى حبة دقيقة بيضاء .

أما الظاهرة الثانية فهى أن العربى يتنبه للأشياء التى حوله ، والتى

---

(١) المزهر ١/٤٠١

(٢) المرجع السابق ١/٣٩٠

يتجاور فيها اللونان الأبيض والأسود معا ، وهى صفة تجذبه ، ويتابع تطبيقاتها فى الظواهر حوله ، ويضع لها الألفاظ الكثيرة فيقول : أبقع وأبرد وأخصف وأصقع وأنوق وأمغر وآغر وأملح وأبلق وأورق واحسب واقفز وأنمش وأرخم ولطيم ومدنر وآزر • ويقول : رثمـــاء ومطرفة وعصماء ووشحاء ونمشـــاء وكسعاء وكحـــلاء وسعفاء • ويقول : الشمط والمهق واللعســـة والبرج والبرش والكوكب والحـــور والدعج والزرق والسحر والصحر والشكل والشهب والصـــدع والصحم والصهب والطحل والعرم والعيس والغبش والغبس والغلس والقرح والقمرة والمقاناة والقهب واللمظة والنبطة والشية •

وألفاظ كثيرة أخرى ، اعتمدنا فى دلالاتها على لســـان العرب ، وتدل فى عمومها على لون أبيض يجاوره لون أســـود ، فالضد لا يغيب عن ضده فى الألوان ، التى يطالعها العربى صباح ومساء ، نحن هنا ازاء مخلوق نصفه أبيض ونصفه أســـود ، لا يطغى أحدهما على الآخر ، ولا يمتزج به ، كالحية الرقشاء ، أو الطائر الأبلق ، أو الناقة العصماء ، أو الجمل الأورق ، أو الثوب الابرد ، أو الفرس الاقفز أو الشاة الكحلاء •

وهى تركيبة تضرب بجذور الى النفس العربية ، تتجاور المتضادات وتتعايش أمام ناظريه ، ويقبل هـــذا التآلف بين المتضادات ، ولا يستغرب أن يكون هناك ملك نصفه ثلج، ونصفه نار ، لا الثلج يطفىء النار ، ولا النار تذيب الثلج ، وأن يكون هناك بحران هذا عذاب سائغ شرابه ، وهذا ملح أجاج ، ولكنهما لا يمتزجان ، ولا تضيع خاصية أحدهما فى الآخر ، فبينهما حاجز لا يبغيان •

ان الأبيض والأسود يتجاوران ، داخل النفسية العربية ، وهـــو يقبلهما معا ، ويوازن بينهما ، انه ينظر الى الأشياء بالعينين ، فلا يرى الدنيا بياضا فقط ، ولا سوادا فقط ، بل هى صورة يتجاور فيها الأبيض

والأسود . كما تتجاور قطع الشطرنج على رقعة واحـدة ، ترمز الى الليل والنهار .

وقد شكلت هذه الصورة الحس الفنى لدى العربى ، فاستحسن البلاغيون والنقاد فى كتبهم تلك الصـورة التى يتجاور فيهـا الأبيض والأسود مثل :

انظر اليـه كزورق من فضـة ... قد أثقلته حمولة من عنبـر (١)
تريا نهـارا مشمسا قـد شـابه ... زهر الربى كأنمـا هـو مقمر (٢)
كأن مثار النقع فـوق رءوسـنا ... وأسيافنا ليل تهاوى كواكبـه (٣)
فانهض الى نـار وفحم كأنهمـا ... فى العين ظلم وانصاف قد اتفقا(٤)
يتعاوران مـن الغبـار مـلاءة ... بيضـاء محكمـة همـا نسجاها
تطوى اذا وردا مكانا محزنـا ... واذا السنابك أسهلت نشراها (٥)
واذا الاسـنة خالطتهـا خلتهـا ... فيهـا خيال كواكب فى المـاء (٦)
بيضاء فى نعج صـفراء فى برج ... كأنها فضـة قـد مسها ذهب (٧)

فمفردات الألوان وصورها تؤدى بنا من جديد ، الى معنى الوسطية

---

(١) البيت لابن المعتز .
(٢) البيت لأبى تمام وقد علق عليه صاحب الايضاح (ص ٣٦٩) فقال ان النبات من شدة خضرته — مع كثرته وتكاثفه — قد صار لونه الى الاسوداد فنقص من صورة الشمس حتى صار كضوء القمر .
(٣) البيت لبشار بن برد .
(٤) البيت للتنوخى . انظر الايضاح ص ٣٣٩
(٥) البيتان لعدى بن الرقاع يصف حمارين وحشيين ، ومحزنا : صلبا لا تراب فيه . واسهلت : اى دخلت السهل .
(٦) البيت البحترى انظر الايضاح ص ٣٨٩
(٧) البيت لذى الرمة ، الخصائص ٣٢٥/١

التى تجمع بين الأمرين ، دون أن يتداخلا ، أو يطغى أحدهما على الآخر • ان الضد هنا يتعايش مع ضده ، ونقبل هذا المخلوق ، الذى يجمع بين المتناقضات والذى يبدو شيئا عجيبا فى نظر حضارة أخرى ، نقبله لأن كل هـذا يدور تحت عناية الله وأمره ، وهـذا هو معنى الدعاء الذى كان يدعو به الملك ، ليلة ان التقى به النبى صلى الله عليه وسلم ، فى الاسراء والمعراج ، بأن يؤلف الله بين قلوب عباده المسلمين كما ألف بين الثلج والنار •

* * *

أن الضد لا يغيب عن الضـد فى اللغة العربية ، قد يفصل بينهما صراط مستقيم ، أو شعرة رقيقة ، كتلك التى تفصل بين التوكل والتواكل ، أو بين وحدة المشاهدة ووحدة الوجـود •

ان اللغـة العربية تفرق بين الضـدين بحرف أو بحركة « قولهم يدوى من الداء ويداوى من الدواء (١) ويخفر اذا نقض من أخفر ، ويخفر اذا أجار من خفر ، ولعنة اذا أكثر اللعن ، ولعنة اذا كان يلعن ، وهـزأة وهزأة ، وسخرة وسخرة » (٢) •

وقد يشترك الضدان فى وزن واحد ، أو اشتقاق واحد ، ويورد سيبويه (٣) فى كتابه أمثلة كثيرة على ذلك ، يدل تواترها على أن الضد لا يغيب عن ضده ، وأن اللغة تنظر بعينين ، وتجمع بين الأمرين ، حتى لو بدا أنهما متنافران •

---

(١) دوى يدوى هلك بمرض باطن .

(٢) الصاحبى ص ١٩٢ وايضا المزهر ٣٣٦/١

(٣) هو عمر بن عثمان بن قنبر ، ولد بالبيضاء احدى مدن فارس ، ونشأ وأقام بالبصرة أخذ عن الخليل ، وعيسى بن عمر ، ويونس بن حبيب ، توفى سنة ١٨٠ هـ .

ففى الأدواء التى تصيب البـدن قالوا حبط يحبط حبطا وهـو حبط ، ووجع يوجع وجعا وهـو وجع ، ومثل هـذا الوزن والاشتقاق قالوا فى الأمراض التى تصيب الفؤاد مثل فزع يفزع فزعا وهو فزع ، وفرق يفرق فرقا وهو فرق ، ووجل يوجل وجلا وهو وجل (١) •

وما يدل على الحسن أو القبح ، فانه يأتى على وزن فعـل يفعل فيقال وسم يوسم ، جمل يجمل ، كمـا يقال قبح يقبح ، وتأتى الأسماء فى الضدين على وزن فعيل فيقال : وسيم ، جميل ، قبيح •

وما يدل على الشدة والجرأة ، أو القوة والضعف ، فانه يأتى على وزن واحـد فيقال ، ضعف ضعفا وهـو ضعيف ، كما يقال شجع شجاعة وهو شجاع ويقال شجيع ، وفعال أخو فعيل (٢) •

وما يدل على الرفعة والضعة فانه يأتى على وزن فعيل ، فيقال : كبير وغنى ورفيع وشريف وكريم وحليم ، كما يقال : صغير وكبير وضعيف ورضيع ودنىء ولئيم •

ويواصل سيبوية فى ثنايا الكتاب متابعاته ، فينص فى أكثر مـن موضع على أن الضـد يأتى على وزن ضده « قالوا : أشر يأشر أشرا وهـو أشر ، وبطر يبطر بطرا وهـو بطر ، وفرح يفرح فرحا وهـو فرح •• وقالوا : جذلان ، كما قالوا كسلان وكسل وسكران وسـكر ، وقالوا نشط ينشط وهو نشيط ، كما قالوا : الحزين وقالوا النشـاط كمـا قالوا السقام ، وجعلوا السقام والسقيم كالجمال والجميل (٣)

---

(١) الكتاب ٤/١٧ . والحباط : وجع البطن من الانتفاخ لكثرة الأكل أو لأكل ما لا يوافق .
(٢) الكتاب ٤/٣١
(٣) الكتاب ٤/١٩

وقالوا شبع يشبع شبعا ، وهـو شبعان ، كثروا الشبع كمـا قالوا الطوى (١) وقد يقال للانسان قليل كما يقال قصير ، فقد وافق بضده ، وهو العظيم ، الا أن ضـد العظيم الصغير ، وضـد القليل الكثير ، فقد وافق ضد الكثير ضد العظيم فى البناء » (٢) .

* * *

ومراعاة الجانب الآخر فى اللغة العربيـة ، لا يتأتى فى الكلمة الواحدة فقط ، ولكن فى العلاقات أيضا . فاللغة العربيـة توازن بين الشيئين ، وتعادل بين المتقابلين ، لا تركز على جانب وتهمل الجانب الآخر ، عين على المـاديات والحسيات والحقيقة وأخرى على المعنويات والمجـاز ، عين على اللفظ والكلمة والدال ، وأخـرى فى الوقت نفسه على المعنى والمدلول .

ان مجرد التصفح لكتاب « أساس البلاغة » للزمخشرى (٣) ، وهو كتاب يذكر المعنى الحقيقى والمعنى المجازى للكلمة ، يدرك قرب العلاقة بين الحقيقة والمجاز ، ويرى أن المعنويات لا توغل بعيدا عن الحسيات ، فهى تنبثق منها وتجاورها ، ولا يفصـل بينهما الا فاصل دقيق « فسما خاض لجة بحر طام ، واقتحم قلة جبل سام .. ومن المجاز سمت نفسه الى كذا ، وهمته تسمو الى معالى الأمـور » ، « سمن الشـاة وأسمنها وسمن حتى زمن ... ومن المجـاز كلام غث وسمين » « الأثلة السمرة ،

---

(١) الكتاب ٣٠/٤ ويذكر صاحب اللسان فى مادة « وسـط » ان من الشائع أن نقيض الشىء ينزل منزلة نظيره فكثير من الأوزان فيقال وسـط على وزن طرف ، وشبعان على وزن جوعان ، وطويل على وزن قصير .

(٢) الكتاب ٢٢/٤

(٣) وهو أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشرى ، ولد بزمخشر سنة ٤٦٧ هـ ، ورحل الى خراسان بالعراق ، وجاور بمكة المكرمة ، وتوفى بخوارزم سنة ٥٣٨ هـ .

وقيل شجرة من العضـــاة طويلة مستقيمـــة الخشبة تعمل منها القصاع والاقداح ، فوقعت مجازا فى قولهم : نحت أثلته اذا تنقصه » ، « أزم الفرس على فأس اللجـــام : عض عليه وأمسكه ومن المجاز أزم الدهر علينا ، وأزمتنا أزمة » ، « فلان مأفون : منزوف العقل ، وفى عقله أفن ، من أفنت الناقة اذا استنزف الحالب لبنها » .. « أرغم أنوفهم وانفهم ، ونفست عن أنفيه أى منخريه .. وأمرأة أنوف أى طيبة الأنف .. ومن المجـــاز هو أنف قومه وهم أنف الناس » ، « وهذا شىء أنيق وأنق مؤنق ، ورأيت له حسنا وأنقا وبهاء ورونقا وقد آنقنى بحسنه ، وقـــد أنقت به أى أعجبت ، ولى به أنق ، وتأنق فى الروضة : وقع فيها متتبعا لمـــا يونقه .. ومن المجاز تأنق فى عمله وفى كلامه اذا فعل فعل المتأنق فى الرياض من تتبع الأنق والاحسن » .

ويهتم العرب بفن التشبيه ، ويتفقون على شرف قدره وفخامة أمره فى فن البلاغة (١) كما يقول الخطيب القزوينى ، وهو فن أساسا يقوم على أداة تقرب بين شيئين ، أو على وجـــه شبه يجمع بينهما ، والناظر فى كثير من التشبيهات ، التى أوردها صاحب الايضاح ، يجـــد أن المعنويات انما تفسر بالحسيات ، فهما (الحسى والمعنوى) يتجاوران ، ولا ينفصـــل احدهما عن الآخر ، يقـــول الله تعالى « والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتى اذا جاءه لم يجده شيئا » (٢) « واضرب لهم مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض فأصبح هشيما تذروه الرياح » (٣) « يخرجهم من الظلمات الى النور »(٤)،

---

(١) الايضاح ص ٣٢٨ ، والخطيب هو جلال الدين أبو محمد بن قاضى القضاة سعد الدين أبى محمد عبد الرحمن بن امام الدين أبى حفص عمر القزوينى ، ولد سنة ٦٦٦ ، انتقل الى دمشق وتولى الخطابة فى مسجدها ، ثم تولى القضاء بمصر ، ثم جاء الى دمشق وتوفى بها سنة ٧٣٩ .

(٢) سورة النور ، الآية ٣٩

(٣) سورة الكهف الآية ٥٤

(٤) سورة المـــائدة ١٦ .

وقال صلى الله عليه وسلم « أتيتكم بالجنفية البيضاء » ، وجاء فى الشعر :

ولقد ذكرتك والظلام كأنه ... يوم النوى وفؤاد من لم يعشق
وأرض كأخلاق الكرام قطعتها ... وقد كحل الليل السماك فأبصرا (١)
فانهض الى نار وفحم كأنهما ... فى العين ظلم وانصاف قد اتفقا(٢)
أهديت عطرا مثل طيب ثنائه ... فكأنما أهدى له أخلاقه
كأن انتضاء البدر من تحت غيمه ... نجاء فى البأساء بعد وقوع (٣)

ان سهولة الانتقال من الماديات الى المعنويات ، أو من الحقيقة الى المجاز ، وان الاعتماد على أداة التشبيه فى الانتقال بين المشبه والمشبه به ، لا يدل كما يرى رينان على ضعف فى الخيال العربى ، الذى لا يستطيع أن يبتكر خيالا دون تكأه ، ولا يستطيع أن يوغل فى المعنويات دون أن يعتمد على الحسيات ، لأن من يظن ذلك لا يستطيع أن يقع على فلسفة التفكير العربى ، انه غريب ينظر بعين واحدة ، ويركز على أمر دون آخر .

ولأن هذا كله يمكن أن يفسر بفكرة الوسطية ، والتى لا تركز على جانب وتهمل الجانب الآخر ، ان العربى الذى يتنبه للصورة الدقيقة فى بيت التنوخى ، صورة تجمع بين الضدين فى شىء واحد ، فالنار تتجاور مع الفحم ، كما يتجاور الأسود والأبيض ، والظلم والعدل ، العربى الذى يدرك أمثال هذه الصور الدقيقة ، ليس بغريب أن يجمع بين المادى والحسى ، والحقيقة والمجاز ، ولا يفصل بينهما الا حرف صغير ، أو

---

(١) النوى : الفراق ، السماك : اسم كوكب .
(٢) البيت للتنوخى وهو أبو القاسم على بن داود ، أبى الفهم القاضى .
(٣) انتضى السيف : استله من غمده ، نجاء : نجاة . والبيت للعلوى الأصفهانى .

خطوة قريبة ، ان هـذا ليس غريبا كما قلت على من يعيش فى ظل حضارة ، تنظر بالعينين ، وتتعايش فيها الاضداد ، كما يتعايش الثلج والنـار ، فلا الثلج يطفىء النار ، ولا النار تذيب الثلج ، لأن كل ذلك يجرى تحت عين الله ، الذى يؤلف بين المتضادات ، ويخرج الحى من الميت ويخرج الميت من المحى •

* * *

والعلاقة بين اللفظ والمعنى متوازنة ، فلا يطغى أحدهما على الآخر ، ان المعانى لا تعيش بعيدا عن البنية اللفظية ، أنا لا أتحدث هنا عن اللفظ والمعنى بمعناهما البلاغى ، ولا عن الشكل والمضمون بمعناهما الأدبى ، ولكن أتحدث عن الألفاظ ودلالاتها بمعناها اللغوى ، نحن هنا ازاء لغة تكاد تصبح تصورية ، بمعنى أن ألفاظها وحروفها وبنيتها الشكلية تكاد تجسـد المعنى ، وهى خصيصة ليست من استنتاجى ، بل تنبه اليهـا كثير من اللغويين القدامى •

حقا ان السيوطى يرفض رأى عباد بن سليمان الصيمرى من المعتزلة ، الذى يرى ان المناسبة بين اللفظ ومدلوله مناسبة طبيعية ، فلابد من أن يدل اللفظ ببنيته على محتواه ، وقد سئل بعض من يرى رأيه عن معنى « اذغاغ » وهـو بالفارسية الحجر ، فقال « ارى فيـه يبسا شديدا وأراه الحجر » (١) •

ولكن السيوطى مع ذلك يرى أن أهل العربية « كادوا يطبقون على ثبوت المناسبة بين الألفاظ والمعانى ، وان كانت المناسبة بينهما ليست ذاتية وموجبة » •

---

(١) المزهـر .

ويعقد ان جنى بابا تحت عنوان « امساس الألفاظ أشباه المعانى »(١) ويضرب أمثلة كثيرة تدل على ان الألفاظ العربية توحى بمعانيها ، ومن تلك الأمثلة :

١ ــ ألفاظ الأصوات تدل على مسمياتها ، فحينما رأوا فى صوت الجندب استطالة ومدا سموه (صر) ، وحين رأوا فى صوت البازى تقطيعا سموه (صرصر) •

٢ ــ وزن فعلان يدل على الاضطراب والحركة مثل : النقزان (٢) ، الغليان ، الغثيان ، وذلك لأن توالى الحركات فى اللفظ يدل على توالى الأحداث وتكرارها •

٣ ــ المصادر الرباعية المضعفة تدل على التكرير نحو : الزغزغة ، والقلقلة ، والصلصلة ، والقعقعة ، فكأن تكرير الحرف يعنى تكرير الشىء ،

٤ ــ وزن فعلى فى الصفات والمصادر يأتى للسرعة ، نحو البشكى ، والجمزى ، والولقى • فتوالى الحركات فى اللفظ يدل على توالى الشىء وسرعته •

٥ ــ تكرير العين فى اللفظ يدل على تكرير الحدث ، نحو : كسر ، وقطع ، وفتح ، وغلف •

٦ ــ أصوات الحروف فى اللفظة ، تدل على الأصوات الخارجية ، التى تعبر عنها الكلمة • نحو : خضم وقضم ، فالخضم لأكل الرطب ، والقضم لأكل اليابس ، فاختاروا الخاء لرخاوتها لأكل الرطب ، والقاف

---

(١) الخصائص ١٥٢/٢ ، وابن جنى : هو ابو الفتح عثمان بن جنى نشأ بالموصل واتصل بأبى على الفارسى ، توفى سنة ٣٩٢ هـ .

(٢) يقال نقز الظبى : اذا وثب بصعدا .

لصلابتها للياس ، ومن ذلك النضح للمـاء ونحوه ، والنضح أقوى من النضخ ، فجعلوا الحاء لرقتها للمـاء الضعيف ، والخاء لغلظها لمـا هو أقوى منه •• ومن ذلك الوسيلة والوصيلة ، فالصاد أقوى صوتا من السين لمـا فيها من الاستعلاء ، والوصيلة أقوى معنى من الوسيلة ، ومن ذلك صعيد وسعيد فجعلوا الصـاد لأنها أقوى للصعود الحسى ، وجعلوا السين لضعفها للصعود المعنوى ، فقالوا هو سعيد الجد وعالى الجـد ، والدلالة اللفظية أقوى من الدلالة المعنوية •

٧ ــ بل ان ترتيب الحروف فى الكلمة ، يدل على ترتيب الأحـداث المعبر عنها ، وكأن الكلمة قد تحولت الى صورة مجسدة للفعل ، وذلك مثل « بحث » فالباء لغلظها تشبه بصوتها خفقـة الكف على الأرض ، والحاء بصحلها (١) تشبه مخالب الأسـد وبراثن الذئب ونحوها اذا غارت فى الأرض ، والثاء للنفث والبث للتراب •

٨ ــ ومن ذلك تسميتهم الأشياء بأصواتها ، كالخازباز لصوته (٢) ، والبط لصوته ، والواق لصوته (٣) ، وغاق لصوته (٤) •

٩ ــ واذا اجتمعت الفاء مـع الدال ، والتاء ، والطاء ، والراء ، واللام ، والنون ، فانها تدل على الوهن والضعف ، مثل : الدالف (الشيخ الضعيف) ، والتالف ، والطليف ، والظليف (ظليف لغة فى الطليف وهو المجان) ، والطنف (لمـا أشرف خارجا عن البناء ، وليست له قوة البناء الأصلى) ، والدنف (المريض) ، والتنوفة (وهى الفلاة التى تؤدى الى النهلاك) ، والترفيه (لين العيش) ، والطرف (لأن طرف الشىء أضعف

---

(١) الصحل : البحة فى الصوت .
(٢) الخازباز : الذباب .
(٣) اسم طائر فوق العصفور .
(٤) الغاق : الغراب .

من وسطه) ، والفرد (وهو أضعف من الجماعة) ، والطفل (للصغير) ، والطفل (للرخص وهو ضد الشثن) ، والتفل للريح المكروهة فهى منبوذة ، والدفر للنتن ، والفلته لضعف الرأى ، والفطر للشق .

ويزيد السيوطى (١) أمثلة أخرى تتدرج فيها الحروف مع درجات المعانى ، وذلك لأن العرب كما يقول ، تستخدم الحرف الأضعف والالين والأخف والأسهل والأهمس ، لما هو أدنى وأقل وأخف عملا أو صوتا ، وجعلت الحرف الأقوى والأشد والأظهر والأجهر ، لما هو أقوى عملا وأعظم حسا ، ومن ذلك المد والمت والمط ، ومنه النقش فى الحائط والرقش فى القرطاس والوشم فى اليد ، والرسم فى الجلد ، والرشم على الحنطة والشعير ، والوشى فى الثوب ، ومنه الضرب بالراحة على مقدم الرأس : صقع ، وعلى القفا : صفع ، وعلى الخد ببسط الكف : لطم ، وبقبض الكف : لكم ، وبكلتا اليدين : كدم ، وعلى الجنب بالأصبع : وخز ، وعلى الصدر والجنب : وكز ولكز ، وعلى الحنك والذقن : وهز ولهز ، ومنه اذا أخرج المكروب أو المريض صوتا رقيقا فهو الرنين ، فان أخفاه فهو الهنين ، فان أظهره فخرج خافتا فهو الحنين ، فاذا زاد فيه فهو الأنين ، فان زاد فى رفعه فهو الخنين .

* * *

فان اللفظ لا يغيب عن المعنى ، والعلاقة بينهما مطردة ، فاذا تقاربت المعانى تقاربت الألفاظ ، واذا زادت الألفاظ زادت المعانى ، نحن هنا ازاء قضيتين أخريين ، أشار اليهما ابن جنى أيضا ، وتكشفان عن العلاقة القريبة بين اللفظ والمعنى ، فأحدهما لا يوغل بعيدا عن الآخر ، انهما يسيران متوازيين ، ويؤثر كل منها فى الآخر .

اما القضية الأولى فقد ذكرها ابن جنى تحت عنوان « باب فى تصاقب

---

(١) المزهر ١/٥٣ .

الألفاظ لتصاقب المعانى » (١) ، وهو يعنى بذلك ان المعانى اذا تقاربت ، فان الألفاظ أيضا تتقارب ، انه هنا لا يتحدث عن لفظ واحـد ومعنى واحد ، ولكنه يتحدث عن مجموعة من المعانى تتقارب فى دلالاتها ، وتأتى ازاءها مجموعة من الألفاظ تتقارب أيضا فى بنيتها ، فمثلا :

١ ــ قد يكون الاختلاف بين الألفاظ فى حرف واحد ، ولكن نطقه يتقارب ، فالكلمات « جرف وجلف وجنف » يتقارب فيها الحرف الواحد المختلف ، فالراء أخت اللام والنون ، وذلك لأن معانى هـذه الألفاظ تتقارب ، تقول جرفت القلم وجلفته اذا أخذت جلفته ، وقريب من ذلك الجنف وهو الميل ، واذا جرفت الشىء أو جلفته ، فقد املته عما كان عليه ، والكلمتان « حمس » و « حبس » تتقاربان ، فالميم أخت الباء ، والمعنيان يتقاربان أيضا تقول حبست الشىء ، وحمس الشر اذا اشتد ، واذا حبس الشىء صاحبه تخاصما واشتد الشر بينهما .

٢ ــ وقد يكون الاختلاف فى حرفين ، يتقاربان فى النطق ، فالسحيل والصهيل فى ألفاظ الأصوات ، وهما يتقاربان فى الحروف أيضا ، فالصاد اخت السين والخاء اخت الحاء .

٣ ــ وقد يكون الاختلاف فى ثلاثة حروف تتقارب فى نطقها ، فالأزم والعصب وهما بمعنى الشدة يتقاربان فى الحروف ، فالهمزة أخت العين ، والزاى اخت الصاد ، والميم أخت الباء .

* * *

أما القضية الثانية ، فقد ذكرها ابن جنى تحت عنوان « باب فى قوة اللفظ لقوة المعنى » (٢) ، وهو يعنى بذلك ان الألفاظ أدلة المعانى

---

(١) الخصائص ٢/١٤٥
(٢) الخصائص ٣/٢٦٤

على حـد تعبيره ، فالزيادة فيها تؤدى الى الزيادة فى المعنى ، أو بعبارة أخرى : يتجاور فى ذهن العربى دائما اللفظ ومعناه ، فكلاهما قريب من الآخـر ، لا بسبب ضعف فى ادراك الكلمات أو قصـور فى الفلسفـة والتفكير ، بل بسبب تلك النظرة المركبة التى تجمع بين الشىء وضده ، وبسبب تلك العـدالة بمعناها الوسطى ، التى توازن فى الحـكم بين الشيئين ، فمثلا :

١ — تقول خشن ، فاذا أردت الزيادة فى الخشونة قلت اخشوشن ، ومثله اعشب واعشوشب ، حـلا واحلولى ، خلق واخلولق ، غـدن واغدودن (١) .

٢ — وتقول قدر ، فاذا أردت الزيادة قلت اقتدر ، وهـذا يطرد فى باب فعل افتعل ، مثل كسب واكتسب ، حمل واحتمل .

٣ — وتقول جميل ووضىء ، فاذا اردت المبالغة فى المعنى ، قلت وضاء وجمال ، ومثله مليح وملاح وحسن وحسان .

٤ — وتضعيف العين فى اللفظ يؤدى الى زيادة المعنى ، تقول : قطع زيادة فى قطع ، وخطاف لكثرة الاختطاف ، وسكين لكثرة تسكين الذابح به ، والبزار والعطار والقصار لكثرة تعاطى هذه الأشياء ، والنساف لكثرة نسف هذا الطائر بجناحيه ، والخضـارى لكثرة خضرة هذا الطائر ، والحوارى لقوة حور هـذا الطائر وهو بياضه (٢) .

---

(١) خلق : كان خليقا وجديرا ، ويقال اخلولق السحاب : استوى وصار خليقا للمطر ، والغدن : اللين .

(٢) الحوارى : الدقيق الأبيض . ويرى السيوطى (المزهر ١/٣٣٢) أن من سنن العرب الزيادة فى حروف الاسم ، اما للمبالغة واما للتشويه والتقبيح ، نحو رعشن للذى يرتعش وزرقم للشديد الزرق ، وشدقم للواسع الشدق ، وصلدم للناقة الصلبة والأصل صلد ، ومنه كبار وطوال وطرماح للمفرط الطول ، وسمعنه ونظرنه للكثير التسمع والتنظر .

ويتحدث ابن جنى عن ان الكلمة الثلاثية قد يزاد فيها حرف ، لكى تلحق بالكلمة الرباعية أو الخماسية ، وان هـذا الالحاق سببه « التوسع فى اللغة » (١) كما يقول ، واذا وقفنا عند هذه العبارة فسنجد ان التوسع يعنى الزيادة فى المعنى والتى تقتضى الزيادة فى اللفظ ، فمثلا الواو زائدة فى كلمـة « كوثر » لكن تدل على الكثرة قال الشـاعر :

وأنت كثير يابن مروان طـيب وكان أبـوك ابن العقائل كوثرا

---

(١) المنصف ص ٣٥ .

٢ ــ دلالة الألفاظ وتاريخ الوسطية

واذا كانت البنيــة اللفظية تعكس فى ذاتها فكرة الوسطية ، فان التحليل الدلالى يكشف عن مصادر تلك الوسطية ومراحلها التاريخية •

فدلالة الوسط تفضى فى القواميس الى العدل ، والعدل الى الاقامة ، والاقامة الى دين الحنفية ، ولفظة الحنفية تفضى الى طرف السلسلة ، فهى دين ابراهيم ، وهى دين الاســلام جاء فى اللســان « والحنيف المسلم الذى يتحنف عن الأديان ، أى يميل الى الحق وقيل هــو الذى يستقبل قبلة البيت الحرام على ملة ابراهيم ، عليه وعلى نبينا الصلاة والســلام ، وقيل كل من أسلم فى أمر الله تعالى ولم يلتو ، فهو حنيف • أبو زيد : الحنيف : المستقيم وأنشــد :

تعلم أن سيهديكم الينـــا طريق ، لا يجور بكم حنيف

الحنيف فى الجاهلية من كان يحج البيت ويغتسل من الجنابة ويختتن ، فلمــا جاء الاســلام كان الحنيف المسلم » وبذلك تكاملت السلسلة ، وأفضت دلالة « الوسطية » فى النهاية الى مصدرها التاريخى ، فهى تنتقل من حلقة الى حلقة ، حتى تصل الى دين ابراهيم ، وتتضام الحلقات فى وحدة ، تجمع بين الطرفين ، الحنفية والاسلام ، وكل منهما مرحلة تاريخية ، تتحرك فيها الوسطية من الهلامية الى التحديد •

فالتحليل الدلالى لهذه الألفاظ يفضى بها الى مرحلة الضبط والتحديد ، فالاقامة وهى وجه من وجوه الوسطية ، تعنى ضبط الاهواء والثبات على الحالة الحق ، والدين القيم كما ترشــد اللغة هو الدين المستقيم الذى لا زيغ فيه ولا يميل عن الحق ، والكتب القيمة هى الكتب المستقيمة ، التى تبين الحق من الباطل على استواء وبرهان ، كما ورد فى اللسان ،

ودين القيمة هو دين الأمة القيمة بالحق ، أو دين الأمة المستقيمة كما ورد فى اللسان أيضا •

فالمنجز التاريخى الذى تعطيه الدلالة اللغوية هو فكرة الضبط ، التى أضافها الاسلام ، فانتقلت بالحنفية من الهلامية الى التشكل •

وتحت عنوان « باب الأسباب الاسلامية » (١) ، أو عنوان « معرفة الألفاظ الاسلامية » (٢) ، يتنبه ابن فارس (٣) والسيوطى وغيرهما من اللغويين الى التطور الدلالى فى ألفاظ اللغة ، والذى صحب مجىء الاسلام •

ان آية الوسطية فى القرآن الكريم ، تشير الى مرحلة مميزة فى تاريخها ، فقد تحولت من مجرد مردود جغرافى ، الى قوة هادفة ، لقد أصبح غرض الوسطية هو ان تجعل المسلمين نماذج بين الناس ، يحكمون بينهم ، ويقيمون كفتى الميزان « لتكونوا شهداء على الناس » ، وأصبح العدل — كما ذكرت فى فصل الأخلاق — هو الفضيلة الأولى فى منطق الوسطية ، والعادل « هو الذى لا يميل به الهوى فيجور فى الحكم » ، كما تعنى دلالة الكلمة عند صاحب اللسان •

ان أهم ما أضافه الاسلام الى الوسطية هو عنصر الضبط ، كانت الألفاظ عامة فأصبحت محدودة ، كانت الصلاة تعنى الدعاء ، والصوم يعنى الامساك ، والزكاة تعنى النماء ، والحج يعنى القصد ، فتحددت الألفاظ وأصبحت تشير الى هيئات خاصة • ان اللغة تؤدى بنا من خلال دلالتها الى فصل التاريخ وقد سقط كما قلنا على الجغرافيا ، فعدل من محتواها •

---

(١) الصاحبى ص ٤٤

(٢) المزهر ٢٩٤/١

(٣) هو أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا بن محمد بن حبب القزوينى ، أحد أئمة اللغة فى القرن الرابع للهجرة .

أما الألفاظ الجاهلية فهى عكس ذلك تماما ، انهـا ألفاظ المردود الجغرافى قبل أن يسقط عليها التاريخ ، يعدد ابن فارس ألفاظ الجاهلية ، فاذا بها تدور حول المغاورات والتجارات وتطلب الأرباح ، والكدح للمعاش فى رحلة الشتاء والصيف والاغرام بالصيد والمعاقرة والمباشرة ، ويضيف السيوطى ألفاظا آخر مثل الاتاوة والمكس والحلوان ، أنها ألفاظ دنيوية من ناحية ، وهى ألفاظ لم تنضبط بعـد فى ظل عقيدة من ناحية ثانية ، فتركت للنفس أهواءها فى الاحتكار والجرى مع رغباتها • ان كلمـة الجاهلية نفسها تعنى فى أشعار أصحابها الحمق والغضب والانفعال ، يقول عمرو بن كلثوم :

الا لا يجهلن أحـد علينا فنجهل فوق جهل الجاهلينـا

وحين جاء الاسـلام منح العرب الكتاب الذى كانوا ينتظرونه ، وكان أهم ما فى هـذا الكتاب هو الحكمة • ان الفرق بين دلالة الجاهلية التى تعنى التطرف فى الانفعال ، ودلالة الحكمة التى تعنى التجربة التى تمنع صاحبها من ان يتطرف فى انفعالاته ، كما تمنع الحكمة الدابة من كثير من الجهل (١) كما يقول صاحب اللسـان — ان الفرق بين هذا وذلك يشير الى التطور الدلالى لألفاظ اللغة ، بين المردود الجغرافى كما ذكرناه فى فصل الجغرافيا ، والعنصر البشرى كما ذكرناه فى فصل التاريخ •

ان حديث اللغويين عن الألفاظ الاسلامية ، يعنى تنبههم الى التطور التاريخى فى ألفاظ اللغة ، ولكنهم لم يبنوا معاجمهم على تلك الفكرة ، فجاءت المعانى مختلطة ، مما يجعلها تبدو متناقضة ، لأن اللغويين فى معاجمهم جمعوا بين المعـانى المختلفة ، دون أن يردوا كل معنى الى مرحلته التاريخية •

---

(١) حكمة اللجام ما أحاط بحنكى الدابة ، اللسان « حكم » .

وهذا يلقى علينا مسئولية كبيرة فى تحليل ألفاظ السلسلة السابقة (وسط ــ عدل ــ اقامة ــ حنيف ــ اسلام) ، اذ نجد أنفسنا ازاء معان مختلفة ، وأحيانا متناقضة ، ومطالبين فى النهاية بردها الى مصادرها الأولى •

ان كلمتى « وسط » و « عدل » مثلا تدوران حول معنيين رئيسيين ، احدهما يعنى التناسب والاعتدال ، فالوسط هو الخصلة المحمودة بين الطرفين المذمومين « فان السخاء وسط بين البخل والتبذير ، والشجاعة وسط بين الجبن والتهور ، والانسان مأمور بأن يتجنب كل وصف مذموم ، وتجنبه بالتعرى منه والبعد عنه ، فكلما ازداد منه بعدا ازداد منه تعريا ، وأبعد الجهات والمقادير والمعانى من كل طرفين وسطهما ، وهو غاية البعد منهما ، فاذا كان فى الوسط فقد بعد عن الاطراف المذمومة بقدر الامكان » (١) والاعتدال « توسط حال بين حالين فى كم أو كيف كقولهم : جسم معتدل بين الطول والقصر ، وماء معتدل بين البارد والحار ، ويوم معتدل طيب الهواء ، ضد معتذل بالذال المعجمة وكل ما تناسب فقد اعتدل » (٢) •

والآخر يعنى : المساواة ومراعاة الجانبين ، والموازنة بينهما دون أن تلغى احدهما أو تلغيهما معا ، فالوسط كما جاء فى الآية الكريمة « فيه قولان : قال بعضهم مقسطا عدلا ، وقال بعضهم خيارا ، واللفظان مختلفان ، والمعنى واحد ، لأن العدل خير والخير عدل » (٣) •

ان هذا يعنى ان الوسط يراعى الجانبين ، وان المتطرف هو الذى يراعى جانبا ويهمل الآخر ، وهو المعنى فى قوله تعالى « ومن الناس من

---

(١) اللسان مادة « وسط » .
(٢) اللسان مادة « عدل » .
(٣) اللسان مادة « وسط » .

يعبد الله على حرف ، فان اصابة خير اطمأن به ، وان اصابته فتنه انقلب على وجهه » (١) لقد فقد هنا التوازن ، ورجح طرفا على الطرف الآخر ، « كأن الخير والخصب ناحية ، والضرر والشر والمكروه ناحية أخرى ، فهما حرفان ، وعلى العبد ان يعبد خالقه على حالتى السراء والضراء ، ومن عبد الله على السراء وحدها ، دون أن يعبده على الضراء يبتليه الله بها ، فقد عبده على حرف » (٢) وهذا المعنى نفسه نجده أيضا فى معنى العدل « أى النظير والمثيل والعديل الذى يعادلك فى الوزن والقدر •• والعدل : نصف الحمل يكون على أحد جنبى البعير وقال الأزهرى : العدل اسم حمل معدول بحمل أى مسوى به والعديلتان الغرارتان لأن كل واحدة منهما تعادل صاحبتها » (٣) •

ان الفروق التى ذكرناها فى فصلى « الحكمة العربية » بين الوسطية الاغريقية والوسطية الاسلامية ، تفرض علينا ان نرد المعنى الأول الى وسطية أرسطو واعتدال أفلاطون ، وأن نرد المعنى الآخر الى الوسطية الاسلامية ، على الرغم من ان اللغويين قد ذكروا المعنيين جنبا الى جنب دون تنبه الى المرحلة التاريخية والمصدر الأصلى •

---

(١) سورة الحج آية ١١ .
(٢) اللسان مادة « حرف » .
(٣) اللسان مادة « عدل » .

٣ ــ اللغة وتطبيقات الوسطية

يفضل المــازنى الأسماء على الأفعال لثباتها وقوتها وتمكنها واستغنائها عن الأفعال وأنها « فى الصحة أقعد والاعتلال منها أبعد » (١) •

ان التفضيل هنا يصدر عن اعتبارات خارج اللغة ، وهى اعتبارات تهتم بالثبات ، فالاسم قوى ومتمكن لأنه ثابت ، والفعل ضعيف لأنه متغير ، ان فكرة الجوهر الثابت تلقى بظلالها على اذهان اللغويين •

اللغة العربية لغة قيمة ، فهى تصدر عن قوالب أساسية ، تدور وتتفرع حولها الألفاظ • وقد ألف ابن خالويه (٢) كتابا ضخما فى ثلاثة مجلدات سماه « كتاب ليس » ، وموضوعه كما يذكر السيوطى « ليس فى فى اللغة كذا الا كذا ، وهو ما يسميه صاحب القاموس اختصارا « باب ليس » • أى ان ألفاظ اللغــة على كثرتها ترجع الى أوزان واحدة تضمها ، فليس فيها لفظ الا ويندرج مع ألفاظ أخرى تحت قالب واحد ، فهناك القالب (الوزن) وهناك الألفاظ (المفردات) ، وهناك الثابت والمتحرك ، المستقر والمتغير ، الوحدة والتعدد ، ان العلاقة بين عالم الأمر (المطلق) وعالم الخلق (البشر) فى الفكر الاسلامى تتوارد هنا من جديد ، فالمطلق شىء ثابت وقيمــه لا تتغير ، وتقف ازاءه الكثرة المتعددة ، والمتغيرة والمنبثقة منه •

المعاجم العربية تجسد هذه الفكرة بوضوح ، فهى تقوم على فكرة الاشتقاق أو فكرة المجرد والمزيد • فهناك جذور ثابته هى « المجرد » ، تتفرع منها أعضاء وفروع هى « المزيد » ، وتتداخل كل هذه المشتقات فى

---

(١) المنصف ص ٥٧ .

(٢) هو أبو عبد الله بن خالويه ، أخذ عن أبى بكر بن دريد ونفطويه ، توفى سنة ٣٧٠ هـ .

قالب واحد (وزن) ، وتتحول الى مجموعة متضامة ، فاذا كان فى الفكر الفلسفى تعبيرات مثل وحدة الوجود ، أو وحدة المشاهدة ، فاننا نستطيع من الآن أن نتحدث عما يمكن أن نسميه « وحدة اللغة » .

وتلك الوحدة يسمونها الاشتقاق الأصغر ، الذى يقوم عليه نظام المعاجم العربية ، ويشرحه ابن جنى باختصار ، فيقول « كأن تأخذ أصلا من الأصول فتتقراه فتجمع بين معانيه ، وان اختلفت صيغه ومبانيه ، وذلك كتركيب (س ل م) فانك تأخذ معنى السلامة فى تصرفه ، نحو سلم يسلم وسالم وسلمان وسلمى والسلامة والسليم : اللديغ ، اطلق عليه تفاءولا بالسلامة » (١) .

وبمثل هذه الطريقة تتابع المشتقات والمزيدات فى المعاجم العربية ، التى تدور حول معنى رئيسى ، وتلتقى حول جذور لفظية واحدة تتشقق منها فروع وأغصان ، فكأننا ازاء قطعة من « الارابسك » تتكرر فيها الوحدات ولكن لا تتشابه ، وتتداخل ولكن لا تندمج ، وتدور كلها فى تداخلها وحركتها وانبثاقها أمام العين ، فتعطى انطباعا واحدا .

بل وتتسع فكرة الاشتقاق الى ما يسمى « الاشتقاق الأكبر » ، والوحدات هنا تتسع لتضم جذورا كثيرة ، تجتمع كلها على معنى واحد فالمادة « جبر » مثلا تتشكل على ستة قوالب تجتمع كلها على معنى القوة والشدة :

١ ــ الجبر : الملك القوى .

٢ ــ والرجل المجرب اذا اشتدت شكيمته وقويت منته .

٣ ــ والرجل الأبجر هو القوى السرة .

---

(١) الخصائص ٢/١٣٤ .

٤ ــ والبرج لون قوى •

٥ ــ وشهر رجب سمى بذلك لتعظيمه •

٦ ــ والرجل الرباجى هو الذى يعظم نفسه ويفخر بفعله •

ان الوحدات هنا تتسع ولكنها تضمها حروف أصلية تتشكل وتتلون ، وتدور حول معنى أساسى يمنحها وحدة كلية •

* * *

ان اللغة العربية لا تتكون من ألفاظ متفرقة ، لا يضمها شىء سوى أنها تتناثر على صفحات المعاجم ، ولكنها ألفاظ ذات صلات وقربة وتشابك ، انها لغة اتصال لا انفصال ، وهذا يفسر كثرة حروف العطف وأسماء الوصل وغير ذلك من أدوات ، تقوم بالربط بين المفردات والجمل • وقد تحدث كثير من اللغويين عن نوع طريف يسمونه « المشجر » وهو يشبه كما يقول السيوطى المسلسل فى علم الحديث ، وهو يحول اللغة الى مجموعات عنقودية ، تترابط فيما بينها على طريقة التداعى اللفظى ، أو على طريقة الحكايات الشعبية « المفتاح عند النجار والنجار عاوز بيضه •• الخ » •

وقد كتب فى هذا النوع كثير من أئمة اللغة ، وكان أبو الطيب فى كتابه « شجر الدر » يسمى كل باب باسم شجرة ، ويجعل لها فروعا ، وكل شجرة أو باب كان يتكون من مائة كلمة ، أصلها كلمة واحدة ، وكل فرع عشر كلمات ، وقد سمى الباب شجرة « لاشتجار بعض كلماته ببعض أى تداخله وكل شىء تداخل بعضه فى بعض فقد تشاجر » (١) •

فمثلا شجرة العين : عين الوجه والوجه : القصد والقصد : الكسر

---

(١) المزهر ١/٤٥٤ .

والكسر : جانب الخباء والخباء : مصدر خابأت الرجل اذ خبأت له خبأ والخبء : السحاب والسحاب : اسم عمامة كانت للنبى صلى الله عليه وسلم ، والنبى : التل العالى .. الخ .

والفرع الأول فى هذه الشجرة يبدأ هكذا « والعين : عين الشمس والشمس اشماس الخيل والخيل : الوهم ، والوهم : الجمل الكبير ..الخ.

* * *

ان فكرة الوزن فى مقابل الألفاظ ، القالب فى مقابل الابنية ، والمعنى فى مقابل الأسماء ، هى معادل للفكرة الفلسفية الواحد فى مقابل الكل ، والمطلق فى مقابل المتعدد .

وهى فكرة تحتل جزءا أساسيا فى علم الصرف ، وقد اهتم بها اللغويون تحت عناوين مختلفة ذكرها السيوطى تحت عنوان « معرفة الاشباه والنظائر » (١) ، وذكرها ابن جنى تحت عنوان « باب فى تلاقى المعانى على اختلاف الأصول والمبانى » (٢) .

وسنكتفى هنا بأن نقتبس الأمثلة من سيبويه حيث ذكر أن العرب « انما يبنون الأشياء اذا تقاربت على بناء واحد » (٣) فمن ذلك :

١ ــ ما كان على معنى (الفضالة) يأتى على وزن « الفعالة » نحو القلامة ، والقوارة ، والقراضة ، والنفاية ، والحسالة ، والكساحة والحثالة.

٢ ــ ما يفيد الحركة والاضطراب يأتى على وزن (الفعلان) مثل : النزوان ، النقزان ، العسلان ، الغليان .

---

(١) المزهر ٣/٢ .
(٢) الخصائص ١١٣/٢ .
(٣) الكتاب ١٢/٤ .

٣ ــ ما يدل على الصوت يأتى على وزن فعيل مثل الهدير والضجيج والصهيل والهفيف •

٤ ــ ويتشابه الوزن فى الاشتقاق اذا تقاربت المعانى فى مثل « يئست يأسا ويآسة ، وسئمت سأما وسآمة ، وزهدت زهدا وزهادة ، ومثل : اجم يأجم وهو اجم • سنق يسنق سنقا وهو سنق ، وغرض غرضا وهو غرض ، ومثل قنع يقنع قناعة وقانع ، وزهد يزهد زهادة وزاهد » •

٥ ــ معانى الهيج والغضب تأتى على وزن فعل يفعل وهو فعل ، مثل أرج يأرج ارجا وهو أرج ، وحمس يحمس حمسا وهو حمس •

٦ ــ ما كان فى الجوع والعطش يأتى على وزن فعلان ، مثل ظمىء يظمأ ظمأ وهو ظمآن ، عطش يعطش عطشا وهو عطشان ، وصدى يصدى صدى وهو صديان ، وغرث يغرث غرثا وهو غرثان ، وعله يعله علها وهو علهان •

٧ ــ الألوان تأتى على وزن أفعل « مثل أحمر وأصفر وأشهب وأخضر ، ويتشابه الفعل أحيانا والمصدر فيقال : أدم يأدم أدمه ، وشهب يشهب شهبه ، وقهب يقهب قهبه ، وكهب يكهب كهبه » •

٨ ــ العيوب تأتى على وزن فعل فعاله مثل : رقع رقاعة وحمق حماقة وجبن جبانة وشنع شناعة •

٩ ــ الادواء وما شابهها تأتى على وزن فعل يفعل فعلا وهو فعل مثل وجع يوجع وجعا وهو وجع » •

وهكذا نجد أن أوزانا مثل : فاعل ، وتفاعل ، واستفعل ، وتفعل ، وافتعل ، وافعوعل ، واسم المكان ، واسم الاله ، وغير ذلك من صيغ تشير كل صيغة الى معنى رئيسى ، تندرج تحته أبنية كثيرة •

* * *

الوزن فى اللغة العربية يدل على أنها لغة متعالية ، تتجاوز الحياة اليومية وتفرض معيار القيمة ، وهو فى الوقت نفسه يفضى بنا الى خصيصة أخرى من خصائص تلك اللغة ، وهو جانب الايقاع فى مفرداتها وتركيبها • ولست أعنى بذلك المستوى الأدبى فى اللغة الذى يوفره الأديب ، فهو مستوى ثان يعتمد على الموهبة والصناعة الفنية ، ويتحقق فى كل لغة ، وانما أعنى المستوى اللغوى الأول ، والذى يتحقق فى الحصيلة اللفظية للغة العربية ، انها لغة تعتمد على الاذن لا العين ، وتصل الى المتلقى عن طريق الانشاد لا القراءة ، ومن هنا حرصت فى بنيتها أن تكـون سهلة الالتقاط من الاذن •

الأقاويل حول أفضلية اللغة العربية فى الكتب القديمة كثيرة (١) ، فهى لغة أهل الجنة ، وأول من تكلم بها آدم ، وغير ذلك من أقاويل قد تكون بدافع الحماسة ، وقد لا تخضع للتبرير العقلى ، ولكن يبقى من كل ذلك انهم كانوا لا ينظرون الى العربية نظرة عادية ، على اعتبار أنها مجرد أداة يومية لنقل الخبرة بين الناس ، بل كانوا ينظرون اليها نظرتهم الى المستوى الفنى ، الذى يتجاوز المـادة الخام والخبرة اليومية ، وابن فارس يرد على هؤلاء الذين يرون ان البيان قـد يقع بغير اللسـان العربى « لأن كل من أفهم بكلامه على شرط لغته فقد بين » (٢) ، فيرى ان مجرد الافهام أخس مراتب البيان ، والأبكم قد يدل بحركاته على ما فى نفسه ، ثم يشير الى مستوى آخر من البيان يتحقق فى اللغة العربية ، ويرتفع بها عن مجرد الافهام ، وهو مستوى يختلف عن المستوى الأدبى الذى يتحقق فى كل اللغات ، انه مستوى كما هو واضح من كلام ابن فارس يتحقق فى بنية اللغة نفسها وتراكيبها ، من ادغام واشمام وروم ومـد وقلب وتخفيف واضمار وترادف •

---

(١) راجع الصاحبى « باب القول فى ان لغة العرب افضل اللغات وأوسعها » .

(٢) الصاحبى ص ١٢ .

وكثير من القدماء قد تنبه لهذا المستوى الجمالى فى بنية اللغة ، يقول الفارابى حول ذلك كلاما كثيرا منه ان اللسان العربى « بنى مبانى باين بها جميع اللغات من اعراب أوجده الله له ، وتأليف بين حركة وسكون حلاه به ، فلم يجمع بين ساكنين ، أو متحركين متضادين ، ولم يلاق بين حرفين لا يأتلفان ، ولا يعذب النطق بهما ، أو يشنع ذلك منهما فى جرس النغمة وحس السمع ، كالعين مع الحاء ، والقاف مع الكاف ، والحرف المطبق مع غير المطبق مثل تاء الافتعال مع الصاد والضاد فى أخوات لهما ، والواو الساكنة مع الكسرة قبلها ، والياء الساكنة مع الضمة قبلها .. ثم يذكران لغة العرب قد أسسها الله على الرونق والعذوبة وان هذا « علة أبواب الادغام وادخال بعض الحروف فى بعض ، وكذلك الأمثلة والموازين ، اختير منها ما فيه طيب اللفظ واهمل منها ما يجفو اللسان عن النطق به أولا مكرها ، كالحرف الذى يبتدأ به لا يكون الا متحركا ، والشىء الذى تتوالى فيه أربع حركات أو نحو ذلك يسكن بعضها » (١) .

ويقول ابن المقفع « وقد سمعنا لغات كثيرة وان لم نستوعبها من جميع الأمم ، كلغة أصحابنا العجم والروم والهند والترك وخوارزم صقلاب وأندلس والزنج ، فما وجدنا لشىء من هذه اللغات نصوع العربية ، أعنى الفرج التى فى كلماتها ، والفضاء الذى نجده بين حروفها ، والمسافة التى بين مخارجها ، والمعادلة التى نذوقها فى أمثلتها ، والمساواة التى لا تجحد فى أبنيتها » (٢) .

الفارابى وابن المقفع هنا لا يتحدثان عن المستوى الأدبى ، الذى تكفلت كتب البلاغة بالكشف عنه ، ولكنهما يتحدثان عن مستوى يتحقق

---

(١) المزهر ٢/٣٤٢ .

(٢) الامتاع والمؤانسة ١/٧٧ .

فى بنية اللغة وتراكيبها يسميه الفارابى الرونق ، ويسميه ابن المقفع النصوع ، ويسميه ابن فارس السعة (١) •

كل هذه المصطلحات تعود كما هـو واضح من ثنايا كلامهم الى ما تتميز به اللغة العربية فى مستواها اللفظى الأول ، وقبل أن يدرج فى المستوى الأدبى ، من جمال وايقاع •

يقولون ان اللغة العربية لغة ألفاظ ، وانها لكذلك ، على الا يكون هـذا بالمعنى المشين الذى يلصقه بعض المعاصرين والمستشرقين باللغـة العربية ، وهى فى ظنهم لغة ألفاظ تهتم بالترادف والتكرار والزخرفة ، وتفتقر الى عمق المعانى وخصب الخيال •

انها لغة ألفاظ ، لأنها لا تكتفى بنقل الخبرات اليومية ، فى طريقة مجردة عادية ، ولكنها تعتنى بنقلها عن طريق ألفاظ ، يتحقق لها النصوع والرونق والسعة ، وفى ظل هذا المفهوم نستطيع أن ندرك وظيفة الترادف والتكرار وما يسمونه الحروف الزائدة ، فليست العبرة فى ألفاظ كثيرة تبلغ الخمسين والمـائة للأسـد والمـائتين للحية والسبعين للحجر ، ولكن العبرة فى ثروة توضع أمام المتكلم ، لكى ينتقى منها ما يهديه اليه ذوقه ، ان العبرة كما يشرح السيوطى ، وهو يتحدث عن فوائد الترادف ، فى « التوسع فى طرق الفصاحة وأساليب البلاغة فى النظم والنثر ، وذلك لأن اللفظ الواحد قد يتأتى باستعماله مع لفظ آخر ، السجع والقافية والتجنيس والترصيع وغير ذلك من أصناف البديع » (٢) •

* * *

وقد نشأ علم يقال له الانشاد ، وهو يختلف عن الغناء وعن ترتيل القرآن الكريم ، ولكن الوظيفة فى النهاية تتشابه معهما ، فهو يهدف أيضا

---

(١) الصاحبى ص ١٢ .
(٢) المزهـر ١/٤٠٦ .

الى امتاع الاذن عن طريق انشاد الشعر بكيفية تجعله عذبا موسيقيا ، وهـذه الكيفية تسيطر على القصيدة فيضحى من أجلها ببنية المفردات وبالقواعد الاعرابية •

وتحت عنوان « باب وجوه القوافى فى الانشاد » (١) ، يورد سيبويه أمثلة يتحكم فيها الانشاد فى الكلمة ، فيزيد عليها ، أو يغير من حركة اعرابها ، وهو شىء مقبول عند العرب ومستساغ فى الذوق ، لأن الشعر وضع للغناء والترنم كما يقول سيبويه •

فقد يدفعهم الترنم الى مد حركة الروى ، فيزيدون الواو أو الياء أو الألف بحسب الحركة ، فيقولون فى الجر :

قفانبك من ذكرى حبيب ومنزلى

ويقولون فى النصب :

فبتنـا تحيد الوحش عنا كأننـا قتيلان لم يعلم لنا الناس مصرعا (٢)

ويقولون فى حالة الرفع :

هريرة ودعها وان لام لائمـو

وقد يدفعهم الانشاد الى ان يصلوا القافية بالنون فيقولون :

« يا أبتا علك أو عساكن (٣) •

---

(١) الكتاب ٤/٢٠٤ .

(٢) تحيد : تميل أو تنفر يذكر انه خلا بمن يحب بحيث لا يطلع عليهما غير الوحش والبيت ليزيد بن الطثرية وهو ابن عنز بن وائل والطثرية امه ، قتل سنة ١٢٦ هـ .

(٣) من رجز رؤبة ، وهو أبو محمد رؤبة بن العجاج ، كان مقيما بالبصرة وخرج الى البادية وتوفى بها سنة ١٤٥ هـ .

يا صاح ما هاج الدموع الزرفن •
من طلل كالاتحمى انهجن (١) •

وقد يحركون فى الانشاد الساكن أو المجزوم فيقولون :

أغـرك منى ان حبـك قاتلى وانك مهمـا تأمـرى القلب يفعل
متى تأتنا نصبحك كأسـا روية وان كنت عنها غانيا فاغن وازدد (٢)

* * *

يورد سيبويه ايات من القرآن الكريم « جاء المصدر فيها على غير فعله مثل قوله تعالى : « وتبتل اليه تبتيلا » (٣) وتبتل ، مصـدر بتل وليس تبتل •

ويذكر سيبويه السبب فى ان معنى الفعلين واحد (٤) ، فيجـوز ان يناوبا المصـدر ، وفى ظنى ان السبب أبعـد من ذلك ، ويرتد الى الايقاع الموسيقى الذى تحرص عليه الآيات بشـدة ، ان الفواصل فى سورة المزمل تقتضى هـذا الوزن حتى لو أدى الى الاطاحة بالقاعدة ، فهناك ياء مـد قبل الفاصلة فى الآية التى قبل هذه الآية ، وفى الآية التى بعدها أيضا ، فناسب الحرص على الاطراد الموسيقى حتى لو أدى ذلك الى الاطاحة بالقاعدة •

ان الحرص على موسيقية الآيات ، أو مناسبة الفواصل كما فى قول

---

(١) من رجز العجاج والذى قبله ، والأتحمى : ضرب من البرود موشى ، انهج انهاجا : اخلق وأبلى : والعجاج هو : عبد الله بن رؤبة لقى ابا هريرة وسمع منه الحديث .
(٢) البيت لطرفـه : نصبحك من الصبوح : وهـو شرب الغداة . والروية : المروية .
(٣) المزمل /٨ .
(٤) الكتاب ٨١/٤ .

السيوطى (١) شىء هام ، يضحى من أجله بالقواعد المتعارف عليها ، ويعدد السيوطى وجوها كثيرة خالفت فيها المناسبة الأصول ، ومن ذلك :

١ ــ حذف ياء المنقوص المعرف نحو : الكبير المتعال ــ يوم التناد •

٢ ــ حذف ياء الفعل غير المجزوم • نحو : والليل اذا يسر •

٣ ــ حذف ياء الاضافة • فكيف كان عذابى ونذر ، فكيف كان عقاب •

٤ ــ زيادة حرف المد نحو : الظنونا ــ الرسولا ــ السبيلا •

٥ ــ صرف ما لا ينصرف نحو : قوارير ، قوارير •

٦ــ ايراد الكلمة غير مطابقة فى الاسمية أو الفعلية ، نحو : ومن الناس من يقول آمنا بالله واليوم الآخر وما هم بمؤمنين • ولم يقل ولم يؤمنوا •

٧ ــ ايراد أحد القسمين غير مطابق ، نحو « وليعلمن الله الذين صدقوا • وليعلمن الكاذبين » ولم يقل : والذين كذبوا •

٨ ــ الاستغناء بالأفراد عن التثنية ، نحو فلا يخرجنكما من الجنة فتشقى •

٩ ــ الاستغناء بالافراد عن الجمع نحو : واجعلنا للمتقين اماما • ولم يقل : أئمة •

١٠ ــ الاستغناء بالجمع عن الافراد ، نحو : لا بيع فيه ولا خلال ، ولم يقل : خل •

١١ ــ اماله مالا يمال كآيات سورة طه وسورة النجم •

---

(١) الاتقان ٢/٩٩ .

١٢ ــ الفصل بين المعطوف والمعطوف عليه ، نحو : ولولا كلمة سبقت من ربك لكان لزاما وأجل مسمى •

١٣ ــ وقوع مفعول موقع فاعل ، نحو : حجابا مستورا ــ كان وعده مأتيا •

١٤ ــ وقوع فاعل موقع مفعول ، نحو : عيشة راضية •

١٥ ــ اثبات هاء السكت نحو : ماليه ــ سلطانيه •

١٦ ــ العدول عن صيغة الماضى الى صيغة الاستقبال ، نحو : ففريقا كذبتم وفريقا تقتلون •

١٧ ــ تغيير بنية الكلمة نحو : وطور سنين ، وأصلها سيناء •

* * *

تحدث ابن فارس عما سماه المحاذاة فى اللغة العربية ، وذلك ان تجعل كلاما بحذاء كلام « فيؤتى به على وزنه لفظا ، وان كانا مختلفين ، فيقولون : الغدايا والعشايا فقالوا الغدايا لانضمامها الى العشايا ، ومثله قولهم : أعوذ بك من السامة واللامة ، فالسامة من قولهم سمت النعمة اذا خصت ، واللامة أصلها من ألمت ، ولكن لما قرنت بالسامة جعلت فى وزنها » (١) •

ان ابن فارس ينبه الى الفكرة الجمالية التى تحرص عليها تراكيب اللغة العربية ، حتى لو أدت الى مخالفة القاعدة ، فالغداة لا تجمع على الغدايا ولكنهم لما قرنوها بالعشايا ، جاءت على وزنها لكى تتناسب معها ، واسم الفاعل من المت انما يكون « ملمة » ولكنها جاءت على وزن اللامة لتتناسب مع « السامة » •

---

(١) الصاحبى ص ١٩٥ .

ويضرب ابن فارس أمثلة للمحاذاة ، وقعت فى القرآن الكريم فقوله تعالى « ولو شـاء الله لسلطهم عليكم فلقاتلوكم » (١) ، وردت اللام فى كلمة فلقاتلوكم من باب المحاذاة مع لسلطهم ، مع أن الأصل هـو « ولو شاء الله لسلطهم عليكم فقاتلوكم » فاللام من المفروض ان تقع فقط فى جواب « ولو » ، ولا حاجة فى ان تقع أيضـا فى المعطوف على جـواب لو •

ويقول تعالى « لاعذبنه عذابا شديدا أو لأذبحنه أو ليأتينى » (٢) فالفعل الأخير ليس موضعا للقسم ، فلم يكن ليقسم على الهدهد أن يأتيه بعذر ، ولكن لام القسم قد دخلته لكى يتناسب مع الفعلين الآخرين •

* * *

وقد تحدث اللغويون عن ظاهرة سموها « الاتباع » وهى أن تأتى الكلمتان أو أكثر على وزن واحد ، والكلمة الثانية أو الثالثة لا تفيد معنى جديدا ، ولا تستقل عن الكلمة الأولى ، بل هى تأتى تابعة لها ، وكأنه تعبير ومصطلح يحفظ برمته •

وهو قد يأتى من كلمتين مثل : قسيم وسيم ، وضيل بئيل ، وجديد قشيب ، وشيطان ليطان ، وعطشان نطشان ، واسوان أتوان ، وحسن بسـن ، وسـاغب لاغب ، وخب ضب ، وخراب يبـاب ، وحياك الله وبياك ، وحار يار •

وهو قد يأتى من ثلاث كلمات مثل : حسن بسن قسن ، ولا بارك الله فيك ولا تارك ولا دارك ، وغض بض ند ، وحار جار يار ، وهـو تاج فاك ماج أى أحمق ، واجمعون اكتعون أبضعون •

---

(١) النسـاء /٩٠ .
(٢) النمـل /٢١ .

ان هذه الظاهرة لافته للنظر فى اللغة العربية ، وقد ألف فيها ابن فارس كما يقول السيوطى معجما مستقلا ، سماه الاتباع والمزاوجة (١) ، واختلف اللغويون فى تفسيرها وان كانوا يرونها تختلف عن الترادف وعن التأكيد ، فالكلمة الثانية لا تستقل عن الأولى ويجب أن تأتى على وزنها ، انهم يكتفون بتعليلها تعليلا سريعا ينسبونه للأعراب ، فقولون « هـو شىء نتدبه كلامنا » (٢) أى نثبته .

ولكن ما مقصود التثبيت هنا ، انه فى ظنى تثبيت موسيقى ، فحرص اللغة على الايقاع يجعلها تهتم بالموزونات المتتالية ، التى تستريح اليها الاذن ، حتى لو لم تكن لها اضافة كبيرة فى المعنى ، فالايقاع شىء أساسى تهدف اليه اللغة العربية ، وتجلب الترادف والتكرار والزوائد لكى تحقق هـذا الهدف .

* * *

تولى الفصحى عناية كبيرة بالصوت الانسـانى ، فهناك الترخيم والمـد واللين ، وغير ذلك من زيادات وحذف وتغييرات ، يقصد بها التنغيم الصوتى ، أو على حد تعبير ابن جنى يقصد بها الاتساع فى الكلام (٣) .

ان الزيادات فى الفصحى تؤدى وظيفة جمالية ، فهى ليست شيئا عبثا يمكن الاستغناء عنه ، ولكنها تأتى بما يتفق وطبيعة هذه اللغة ، التى تميل الى التنغيم الصوتى ، واكساب الصوت الانسانى درجات ، تستطيع أن تعبر عن الحالة الشعورية .

وقد تنبه القدماء الى هذه الوظيفة وشرحوها فى أكثر من موضع ، فحين يتحدثون عن ألف الندبة مثلا يذكرون وظيفتها ، فهى قد زيدت

---

(١) نشر برونى سنة ١٩٠٦ م .
(٢) المزهر ١/٤١٤ .
(٣) المنصف ص ١٤ .

« لمد الصوت واظهار التفجع على المندوب » (١) . أو « لأن الندبة كأنهم يترنمون فيها » (٢) .

وحين يتحدثون عن المد الذى يجاور آخر الكلمة ، يذكرون له وظيفة جمالية ، يشرحها ابن جنى فيقول « انما جىء بالمد فى هذه المواضع لنعمته (٣) وللين الصوت به وذلك ان آخر الكلمة موضع الوقف ومكان الاستراحة والأوان (٤) فقدموا أمام الحرف الموقوف عليه ما يؤذن بسكونه وما يخفض من غلواء الناطق واستمراره على سنن جريه وتتابع نطقه ، ولذلك كثرت حروف المد قبل حروف الروى — كالتأسيس والردف — وليكون ذلك مؤذنا بالوقوف ، ومؤديا الى الراحة والسكون ، وكلما جاور حروف المد الروى كان آنس به واشد انعاما لمستعمه » (٥) .

ويضرب ابن جنى فى وموضع اخر (٦) أمثله للردف ، الذى يلزم الضرب الثالث من الطويل ليكون عوضا من لام مفاعيلن ، وليدل على لين الصوت ، مثل :

اقيموا بنى النعمان عنا صدوركم ... والا تقيموا صاغرين الرءوسا
لعمرك انى فى الحياة لزاهد ... وفى العيش ما لم ألق ام حكيم
جزونى بما ربيتهم وحملتهم ... كذلك ما ان الخطوب دوال

وقد تحدث كثير من اللغويين عن الكلمة الفصيحة (٧) ، وهم

---

(١) المنصف ص ١٥ .
(٢) الكتاب ٢/٢٢٠ .
(٣) النعمة بفتح النون : فى الأصل الترفه والمراد رقه الصوت .
(٤) الدعة والسكون .
(٥) الخصائص ١/٢٣٤ . والتأسيس : ألف يكون بينها وبين الروى حرف متحرك وذلك كالألف من كلمة « قوائم » مثلا . أما الردف : فهو حرف من حروف العلة يقع قبل حرف الروى مباشرة مثل « تجافينا » أو « الجيب » « أو الهبوب » .
(٦) المنصف ص ١٤ .
(٧) المزهر ١/١٨٤ .

لا يعنون بالفصاحة هنا المستوى الأدبى ، الذى هو خطوة ثانية بعد صحة اللغة ، وانما يعنون المستوى اللغوى ، ومن هنا درست فى كتب البلاغة كمقدمة ، ولم تدرس فى صلب الأبواب التقليدية .

وكان خلو الكلمة من تنافر الحروف ، ومن الثقل على السمع ، من شروط فصاحتها ، ومن هنا أخذوا يتحدثون عن الحروف الثقيلة ، وعما يكثر استعماله من الحروف ، وعن رتب الفصاحة فى الكلمة الواحدة ، التى رفعها بعضهم الى اثنتى عشرة رتبة فى الكلمة الثلاثية (١) ، وهم يعنون بذلك مخارج الحروف فى الكلمة الواحدة والانتقال من مخرج الى آخر ، كالانتقال من الأعلى الى الأوسط الى الأدنى ، كما فى الكلمة « عدب » ، ويرون ان هذا أحسن التراكيب وأكثرها استعمالا .

ان الحديث عن أحسن الأبنية فى الكلمة الواحدة شىء قد اهتم به اللغويون ، وحددوه على أساس صوتى ، فالحروف « اذا تقاربت مخارجها كانت أثقل على اللسان منها اذا تباعدت ، لأنك اذا استعملت اللسان فى حروف الحلق دون حروف الفم ، ودون حروف الذلاقة ، كلفته جرسا واحدا وحركات مختلفة ، الا ترى انك لو ألفت بين الهمزة والهاء والحاء لوجدت الهمزة تتحول هاء فى بعض اللغات لقربها منها ، نحو قولهم فى « أم والله » هم والله ، وكما قالوا فى « اراق » هراق الماء ، ولوجدت الحاء فى بعض الألسنة تتحول هاء » (٢) .

ان السيوطى فى نهاية النص السابق يشير الى فكرة ، هى المسئولة عن التغيرات التى تحدث فى بنية الكلمة ، وهى فكرة تقريب صوت من صوت ، فقد يأتى صوتان متقاربان فى المخارج ، وقد يحدث ذلك صعوبة

---

(١) المزهر ١/١٩٧ .

(٢) المزهر ١/١٩٢ : الحروف الذلقة : حروف طرف اللسان والشفة وهى : اللام ، والراء ، والنون ، والباء ، والفاء ، والميم

فى النطق ، يخرج الكلمة عن فصاحتها ، هنا يأتى دور الادغام ، والامالة ، والابدال ، والقلب ، والاعلال والاشمام ، والروم وغير ذلك من مصطلحات تتردد فى كتب اللغة ، وهى تعنى فى النهاية ، تقريب صوت من صوت ، ولكى تصبح الكلمة فى النهاية سهلة فى النطق ، خفيفة على السمع •

وتحت عنوان « الادغام الأصغر » (١) يقدم ابن جنى صورا مختلفة لتقريب الصوت من الصوت ، فمن ذلك الامالة فى نحو عالم ففتحة العين تقرب الى كسرة اللام والألف تميل الى الياء •

ــ ومن ذلك ان تقع فاء افتعل صادا أو طاء فتقلب لها التاء نحو اصطبر واضطرب ، واطرد ، واظطلم •

ــ ومن ذلك ان تقع فاء افتعل زايا أو دالا أو ذالا فتقلب التاء لها دالا ، نحو ازدان ، وادعى ، واذدكر •

ــ ومن ذلك تقريب الصوت مع حروف الحلق ، نحو : شعير ، وبعير ، ورغيف •

ــ ومن ذلك تغير الحركات الاعرابية فى مثل قولهم « الحمد لله» « والحمد لله » •

ــ ومن ذلك تقريب الحرف من الحرف فى مثل قولهم مزدر وتزدير ، بدلا من مصدر وتصدير •

ــ ومن ذلك الاشمام فى مثل قيل وغيض بأن تأتى بحركة الفاء بين الضم والكسر •

وتحت عنوان « الادغام » (٢) يتحدث سيبويه عن مخارج الحروف ،

---

(١) الخصائص ٢/١٣٩ .
(٢) الكتاب ٤/٤٣١ .

مهموسها ومجهورها ، وأحوال المهموس والمجهور ، وهنا نجد ان التنوع الصوتى فى الحروف يرتفع بها عن الابجدية العادية ، والتى هى عـدد حروفها ، تسعة وعشرون ، فتصل الى خمسة وثلاثين حرفا ، مثل النون الخفيفة ، والهمزة التى بين الألف التى تمال امالة شديدة ، والشين التى كالجيم ، وغير ذلك من حروف تتولد بسبب التنوع فى الصوت .

بل وترتفع الحروف الى اثنين وأربعين حرفا ، اذا أضفنا بعض حروف غير مستحسنة فى القرآن أو الشعر وغير كثيرة على ألسنة العرب ، مثل الكاف التى بين الجيم والكاف ، والضاد الضعيفة ، والصاد التى كالسين .

ويتحدث سيبويه هنا عن نوعية الحروف الصوتية ، فيعطى للحروف صفات بحسب نوعيتها الموسيقية ، فهناك الحرف الشديد ، والرخـو ، والمنحرف ، واللين ، والهاوى ، والمطبق ، والمنفتح . ويستمر سيبويه فى « باب الادغام فى الحروف المتقاربة التى هى من مخرج واحد » (١) ، فيتابع الحروف التى تقاربت فى الصوت ، فيرى ان ادغامها يجعلها سهلة فى النطق خفيفة على السمع .

واذا اتخذنا النون مثلا ، فسنجد سيبويه يعـدد الحروف التى تدغم معها ، مثل الراء والباء والواو والياء ... الخ . وهو فى كل ذلك يتابع قلب النون الى حرف آخر ، وفيما اذا كانت النون بغنة أو بلاغنه ، وفيما اذا كانت تخرج من الخياشيم أو من غيرها .

اذا كان الحس الجمالى كما رأينا يتحكم فى بنية الكلمة ، وهـو المسئول عن التغيرات التى تطرأ على اللفظة ، فان الحس الجمالى أيضا هو المسئول عن تغيير أواخر الكلمات ، وهنا نصل الى ظاهرة الاعراب التى تحتاج الى وقفة خاصـة .

---

(١) الكتاب ٤/٤٤٥ .

الاعراب

يورد ابن فارس أمثلة ، تكشف عن ان عامة الأعراب لم يعرفوا نحوا ولا اعرابا ، فقد سئل أحدهم : أتهمز اسرائيل : فقال : انى اذن لرجل سـوء • وقيل لآخر : اتجر فلسطين ؟ فقال : انى اذن لقوى • وسمع بعض فصحاء العرب ينشـد :

نحن بنى علقمة الاخيـارا •

فقيل له : لم نصبت بنى ؟ فقال : ما نصبته •

فالاعرابى لم يعرف من هذه المصطلحات الا معناها اللغوى ، الذى يعنى الضغط والعصر فى حالة الهمز ، والشـد فى حالة الجر ، والاقامة فى حالة النصب ، ووقف مستغربا أمام المصطلحات النحوية •

وقد تبدو على هذه الأمثلة مسحة التندر ، وقد لا يوافق عليها ابن فارس ، ولكنه مع ذلك يرى ان علم النحو وان كان قديما ، الا أنه قد درس وأتت عليـه الأيام ، وقل فى أيدى الناس تداوله ، حتى جـاء أبو الأسود الدؤلى فجدده (١) •

فالاعراب ليس سليقة تجرى على ألسنة الأعراب كما تدعى النبرات الحماسية ، وليس هو شيئا شائعا بين الناس لا يحتاج الى تعلم ومهارة ، بل هـو صناعة اكتشفها أبو الأسود الدؤلى أو غيره ، ثم شاعت بين الناس ، حتى أصبحت دلالة الثقافة والذكاء •

فلو تجرأ أحد وخرج على هذا النسق لتعرض للتندر من النحاة ،

---

(١) المزهر ٣٤٥/٢ وقد ولد ابو الأسود الدؤلى بمكة ، ثم رحل الى المدينة فروى عن عمر ، وقرأ على عثمان وعلى ، ثم توفى بالبصرة سنة ٦٩ هـ .

والسخرية من النقاد ، ودنت مرتبته فى كتب الطبقات ، حتى لو كان مجيدا فى جوانب الخيال والتفنن البلاغى ، وبذلك تحول النحو الى قيمة شرفية ، تقاس به اقـدار المثقفين ، ويحرص على التحلى بها جمهـرة الأدباء والبلاغيين •

وحين تحدثت كتب النحاة عن وظيفة الاعراب ، ذكرت انه يؤدى الى فهم المعنى ، فهى من حيث تشعر أو لا تشعر تجعل الاعراب هـو اللغة ، فتخلط بين وظيفة اللغة كوسيلة للفهم ووظيفة الاعراب ، الذى استبد وسيطر حتى أصبح هو اللغة نفسها ، وان اشتقاقه يدل على هذه الوظيفة ، فهو من أعرب الرجل عما بنفسه اذا ابان وعبر عن داخله ، وذلك لأن بالاعراب ، تتميز المعانى ويوقف على أغراض المتكلمين ، وذلك ان قائلا لو قال « ما أحسن زيد » غير معرب لم يوقف على مراده ، فاذا قال : ما أحسن زيدا وما أحسن زيد ؟ أو ما أحسن زيد ، أبان الاعراب عن المعنى الـذى أراده » (١) • ويمضى السيوطى فى نبرة افتخار لم يعترض عليها أحد من النحاة قبله أو بعده ، فيذكر أن للعرب فى ذلك ما ليس لغيرهم فهم يفرقون بالحركات وغيرها بين المعانى •

انها القيمة الشرفية اذن التى تميز العنصر العربى ، ويسـوق السيوطى الأمثلة التى تدل على تلك الوظيفة ، فهم يقولون : هذا غلاما أحسن منه رجلا ، يريدون الحال فى شخص واحد ويقولون : هذا غلام أحسن منه رجل ، فهما اذن شخصان ويقولون : كم رجلا رأيت ؟ فى الاستخبار ، وكم رجل رأيت فى الخبر يراد به التكثير ، ويقولون جاء الشتاء والحطب اذا لم يرد ان الحطب قد جاء ، وانما اريد الحاجة اليه ، فان أريد مجيئهما قال : والحطب » •

---

(١) المزهر ٣٢٩/١ وما الأولى تعجبية ، والثانية استفهام ، والأخيرة نفى •

حقا ... هذا صحيح . ولكن السامع لا يستطيع ان يدرك هـذه الفروق الدقيقـة ، الا اذا عرف الفرق بين مـا التعجبية والاستفهامية والنافيـة ، والفرق بين معنى الحـال ومعنى الخبر ، والفرق بين كم الاستفهامية والخبرية ، والفرق بين واو المعية وواو العطف ، انه سامع من نوع خاص قد تعلم هذه الرموز ، وأدرك ما وراء هذه المصطلحات وهى رموز خاصة تحتاج الى تعلم ، وتساعد على التكثيف والاختصار ، بل وتحولت الى مهارة ذهنية تقتدر ، وبصورة تجريدية ، على تقليب كافة الاحتمالات العقلية ، مثلما كان يفعل أرسطو مع أشكاله الصورية ، وهى مهارة لا يستطيعها رجل من عامة الناس لم يخالط نحوا أو ينطق اعرابا .

يبقى للاعراب اذن خصيصته ، وهو انه شيء صناعى ، وراء العبارة فى مدلولها الأول ، ويبقى أن الرجل من عامـة النـاس يستطيع أن يفهم (الاسم) ، دون حاجة الى العلامات التى اخترعها النحاة من جر وتنوين ونداء وأل ، فالاسم هو ما يدل على مسمى ، صديقه أو شارعه ، حتى ولو كان فى الأصل فعلا مثل تأبط شرا ، وهو ليس فى حاجة الى أن يعرف المدلول الزمنى للفعل المضـارع وعن طريق لم أو السين أو لن ، انه يفهم كل ذلك لأنه يتعامل به مـع الناس ، يفهم منهم ويفهمون منه ، ولا يتوقفون ليبحثوا عن علامات أو ليسألوا النحاة عن المصطلحات .

والسيوطى يرد على هؤلاء الذين يزعمون أن ألفاظ الاضداد تؤدى الى الالتباس فى المعانى ، فيرى أن كلام العرب يصحح بعضه بعضا ، ويرتبط أوله بآخره ، ولا يعرف معنى الخطاب منه الا باستيفائه واستكمال جميع حروفه (١) .

وهذا حق ، فاللغة العربية مثل أية لغة فى العالم ، انما تفهم بسياق الكلام دون حاجة الى اعراب أو منطق ، هاجم أبو سعيد السيرافى منطق

---

(١) المزهر ١/٣٩٧ .

أرسطو ، ورأى ان الناس كانوا يفكرون قبل منطق أرسطو وبعده ، وقياسا على هذا فالناس كانوا يفكرون أيضا قبل الاعراب وبعده ، لأن الاعراب فى ظنى قد لعب فى الحضارة العربية ، الدور نفسه الذى لعبه المنطق فى الحضارة الاغريقية ، انه بناء ذهنى ، أو قل هو ميزان صورى ألقى على الفكر العربى ، فحوله الى قضايا شغل الناس بتشقيقها ، والكشف عن احتمالاتها ، مثل المنطق الأرسطى الذى جمد الفكر الاغريقى فى أشكاله الصورية .

ولكن هناك فارقا هاما بين الاعراب والمنطق ، فالمنطق اختراع فلسفى قصد به صاحبه وزن الفكر ، وصدق الناس هذه النية ، فأخذوا يتعلمونه لكى يقيموا أفكارهم . اما الاعراب فهو موجود فى بنية اللغة قبل أبى الأسود الدؤلى وبعده ، انه ليس اختراعا بل هو خاصية لغوية ، فهم الناس خطأ وظيفتها فى أنها تفيد المعنى ، واذا كنا هنا نرفض هذا الفهم فلا يعنى هذا على الاطلاق ، اننا نرفض الاعراب أو ننقص منه ، على العكس نحن نعلى من قدره ، ونبحث له عن وظيفة أخرى لا تقف عند المفهوم المباشر العملى للعبارة ، والتى تجرى فى الأسواق وبين الجماهير ، بل نبحث له عن وظيفة خاصة وراء العبارة يتفهمها علية القوم .

* * *

ليكن مفهوم الاعراب هو الابانة كما يدل الاشتقاق ، ولكن الابانة فى ظنى ليست فى الكشف عن المعنى اللغوى كما فهم النحاة ، بل هى شىء يتجاوز الوضع اللغوى الى الابانة بمعناها الجمالى ، تستخدم (لا) فى حالة النفى فنقول « لا تعلبُ » ، وتستخدم فى حالة النهى فنقول (لا تلعبْ) . ان الاعراب هنا لا يكشف عن المعنى المراد من الجملة ، لأن السامع لا يتوقف عند الضمة فيعرف ان المراد النفى ، أو عند السكون فيعرف ان المتكلم ينهاه عن الفعل . ان المراد يفهم من السياق ، وفهم السياق هو الذى يحدد فى خطوة تالية فيما اذا كان يجب

على المتكلم أن يستخدم الضمة أو السكون ، ان المتكلم استخدم السكون فى ظنى لأنه علامة الجزم ، والجزم فى اللغة هو القطع والحسم والبت ، فناسب أن يأتى فى حالات مثل النهى والأمر والشرط ، اما النفى فهو حالة خبرية لا تحتاج الى حسم ، بل هى تحتمل الصدق والكذب ، فناسب أن تأتى بلا جزم ، اما لماذا اتى النفى مع لم بالجزم (لم يلعبْ) ومع لا بالرفع (لا يلعبُ) ومع لن بالنصب (لن يلعبَ) ، فلعل الاجابة تتضح بعد دراسة العلاقة الصوتية بين حرف النفى وعلامة الاعراب ، فقد تكتشف صلة ما بين لم التى تنتهى بحرف ساكن وبين سكون الفعل ، أو بين لا التى تنتهى بالمد وبين ضمه الفعل ، أو بين لن التى تنتهى بحرف النون وبين فتحة الفعل •

ان الناظر فى فواصل القرآن يدرك ان حركة الاعراب قد تلعب دورا جماليا ، فى الربط بين آيات القرآن ، وفى اضفاء روح الانسجام على السورة ، فمثلا سورة الفرقان تتنوع فواصلها بين الراء واللام والميم والنون والباء • وسورة الفتح أيضا تتنوع فواصلها بين النون والميم والزاى والراء واللام والياء والدال ، وهى حروف تختلف فى مخارجها، ولكن الفاصلة فى السورتين تأتى دائما بالفتح فتضفى على السورة جوا من الوحدة والانسجام ، يعوض عن اختلاف الحروف فى الفواصل ، بينما نجد سورة محمد مثلا تحتفظ بالفاصلة وهى حرف الميم فى أولها وفى آخرها لأنها دائما تأتى ساكنة ، فلزم ان تحتفظ بحرف واحد ومخرج واحد حتى لا تفقد السورة جو الوحدة والانسجام •

ان الحس الجمالى تحرص عليه اللغة العربية فى بنيتها وتراكيبها ، وقد تضحى بالقواعد الاعرابية المتعارف عليها ، اذا تخاصمت هذه القواعد مع فكرة الحس الجمالى ، فمن أجل تقريب الصوت من نظيره قرأ بعضهم قوله تعالى « الحمد لله رب العالمين » بكسر الدال مع انه مبتدأ ، وروى بعضهم قول الشاعر :

وقال اضرب الساقين امك هابل •

بكسر الميم فى « امك » مع انه مبتدأ ، وقد سوغت الكسرة هنا وهناك لكى تتناسب مع نظيرتها التى وردت قبلها أو بعدها •

* * *

وفكرة تقريب صوت من صوت ، لكى تكون الكلمة موسيقية ، يسهل على الاذن التقاطها • أو بعبارة أخرى : فكرة الحس الجمالى فى اللغة العربية ، يكمن وراء كثير من آراء سيبويه ، ففى أكثر من موضع فى كتابه ، يتحدث عن تحريك الساكن اذا التقى بساكن آخر ، وان هذا التحريك واجب ، ويمكن أن يطيح بالقواعد المتعارف عليها ، فتحت عنوان « باب يحرك أواخر الكلمة الساكنة » (١) يذكر أن التحريك قد يكون بالكسر كما فى قوله تعالى « قل هو الله أحد الله » (٢) ، وقد يكون بالضم نحو « قل انظروا ماذا فى السموات والأرض » (٣) وقد يكون بالفتح نحو « الم • الله » (٤) •

والتحريك لا يقتصر على آخر الكلمة ، بل يمتد الى ما قبل الآخر فتحت عنوان « باب الساكن الذى يكون قبل آخر الحروف فيحرك لكراهيتهم التقاء الساكنين » (٥) يذكر سيبويه أمثلة يتحرك فيها ما قبل الآخر فيقولون فى حالة الوقف هـذا بكر ، ويقولون هـذا عدل بكسر عين الكلمة لكى تتناسب مع كسر فائها ، ويقولون فى البسر بضم العين لكى تتناسب مع الفاء •

---

(١) الكتاب ١٥٢/٤ .
(٢) الاخلاص /٢،١ .
(٣) يونس /١٠١ .
(٤) آل عمران /٢،١ .
(٥) الكتاب ١٧٣/٤ .

وتحت عنوان الساكن الذى تحركه فى الوقف اذا كان بعده هاء المذكر (١) يضرب سيبويه أمثلة على ذلك فيقول « اضربه ، منه ، عنه » وقال أبو النجم الراجز :

فقربن هذا ، وهذا ازحلــه (٢) .

ان فكرة الحس الجمالى تكمن وراء كثير من المشكلات التى وقف عندها النحاة وجادلوا حولها ، لأنهم وجدوها تخالف القواعد النحوية التى تعارفوا عليها ، ففكرة الجر بالمجاورة وفى المثال المعروف « رب جحر ضب خرب » وفى غيره ، لا تحتاج الى تأويلات كثيرة اذا ادركنا ان الصفة قد خالفت موصوفها فى الاعراب ، من أجل ان تتناسب مــع اعراب الكلمة التى تجاورها ، وحتى يمكن أن يكون ذلك سهلا على الأذن ، وكثير من الحروف التى يعربونها زائدة لا محل لها من الاعراب ، وهى أحرف تتكرر كثيرا فى الكلمات العربية يمكن أن تجد مبررها فى أنها زيادات لراحة الاذن ، كتلك الزخارف التى ترد فى الالحان العربيــة لتزيد من ابقاعها وتسهل للاذن التقاطها ، ان الذين اهتموا باعراب القرآن من النحاه القدامى ، لم يعربوا تلك الحروف التى لا تفيد شيئا فى المعنى ، على أنها زائدة ، اذ ان القرآن الكريم يتنزه عن الزيادة وانما أعربوها على أساس أنها قد اجتلبت لتأكيد المعنى فيما يظنون ، أو على أســاس انها قد اجتلبت لغرض ايقاعى فيما نعتقد .

* * *

وقد أشار الدكتور ابراهيم أنيس الى هذه الوظيفة الجمالية ، وذكر ان الذى يحدد الحركة الاعرابية ، ليس هو موقع الكلمة فى الجملة ، بل هو طبيعة الصوت وايثاره حركة معينة ، أو انسجام تلك الحركة مــع

---

(١) الكتاب ٤/١٧٩ .

(٢) ازحله ازحالا : ابعده ، ومنه سمى زحل لبعده .

ما يجاورها من حركات آخر (١) • انه باختصار يتحدث عن صفة جمالية للاعراب هى صفة الانسجام ، سواء كان هـذا الانسجام بين حرف وحركة أو بين حركة وأخرى •

ولكن الدكتور ابراهيم أنيس اكتفى بالاشارة السريعة ، ولم يتابع تطبيقات ظاهرة الانسجام ، فيكشف عن كيفية العلاقة بين الحرف والحركة ، أو بين الحركة والأخرى ، انه اكتفى بالقول بأن الواو تنفر من الضم والكسر ، وأن الياء تنفر من الكسر ، وان اللام والعين والنون تؤثر الفتح ، ان ملاحظته صادقة فى دلالتها دون تفصيلاتها ، هى صادقة فى أن للاعراب دلالة جمالية ، ولكن الحرف مهما كانت طبقته الصوتية لا يكتفى بحركة واحدة ، وان اللام أو العين أو النون قد تكون مرة مضمومة وثانية منصوبة وثالثة مكسورة ، وظاهرة الانسجام وحدها لا تستطيع أن تفسر هـذا الاختلاف ، وربما كان من الأفضل أن تضاف اليها ظواهر أخر ، أشير الآن الى ظاهرتين منها ، وهما ظاهرتا الرنين والتنوع •

* * *

اما ظاهرة الرنين فهى ترتبط بالتنوين وهو فى أشهر أنواعه — أعنى تنوين التمكين — نون ساكنة تلحق آخر الأسماء المعربة ، دلالة الخفة والتمكن فى باب الاسمية كما يقول النحاه ، فالمدخل للاعراب اذن هو التنوين •

والتنوين حرف رنان موسيقى ، وقد تنبه الفارابى الى خاصيته الموسيقية ، فجعله مثيلا للنقرة القوية انه يقسم النقرات الى ثلاث : قوية ، ومتوسطة ، وخفيفة ، والقوية تشبه التنوين فى اعراب اللسان

---

(١) من اسرار اللغة ص ٢٤١ .

العربى ، والمتوسطة تشبه حركة الحرف فى لسانهم ، واللينة تشبه اشمام الحركة فى الحركة أو روم الحركة (١) .

واذا تجاهلنا بعض أنواع التنوين ، فاننا لا نستطيع هنا أن نتجاهل نوعا من التنوين ، يدل اسمه على طبيعته الغنائية ، وهو تنوين الترنم ، وقد سمى بذلك لأنهم يترنمون به فى الشعر ، والترنم فى اللغة هو ترجيع الصوت كما يترنم الحمام والقوس والجندب وكل ما يستلذ صوته (٢) .

ان الاذن العربية تستريح للتنغيم الذى يحدثه التنوين ، وقد استثمر القرآن الكريم فى آياته تلك الخاصية فخلق جوا من الرنين نجد أمثلة له فى الآيات الآتية :

الذى جعل لكم الأرض فراشا والسماء بناء وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقا لكم فلا تجعلون لله اندادا وأنتم تعلمون (٣)

« وضرب الله مثلا قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغدا من كل مكان »(٤)

واذا كانت التنوينات هنا تتوالى متماثلة ، والحركة الاعرابية التى قبلها حركة واحدة وهى النصب فى الآيتين السابقتين ، فان آية مثل قوله تعالى « ولا تقولن لشىء انى فاعل ذلك غدا » (٥) تختلف فيها الحركة الاعرابية من جر (شىء) فرفع (فاعل) فنصب (غدا) ، فتكسب الايقاع تنوعا ، وتجعلنا نفترض أن الرفع والنصب والجر قبل التنوين ، انما هو حالات للتنوين ، أو قل بلغة موسيقية انه تنويعات على اللحن

---

(١) الموسيقى الكبير ص ٩٨٦ .
(٢) المعجم الوسيط مادة (رنم) .
(٣) البقرة /٢٢ .
(٤) النحل /١١٢ .
(٥) الكهف /٢٣ .

الرئيسى تقول « جاء محمد ، رأيت محمدا ، مررت بمحمد » ، فتحس ان التنوين يكتسب مع الحركة التى قبل حالة خاصة ، يختلف ايقاعها فى الرفع عنها فى النصب فى الجر ، ولكن متى تؤثر الرفع ومتى تؤثر النصب ومتى تؤثر الجر ، نعود مرة أخرى الى خاصية الانسجام وخاصة بين الحركات التى أشار اليها الدكتور ابراهيم أنيس ، والتى تحتاج الى احصائيات صوتيه ربما تقلب النحو رأسا على عقب •

الأسماء المبنية لا تقبل التنوين ، ومن ثم فهى تلزم حالة واحدة ، لا تتغير أيا كان موقعها فى الكلام • أما الأسماء المعربة فهى تقبل التنوين ، لأنه علامة الاعراب كما تقول كتب النحاة ، ومن ثم فهى لا تلزم حالة واحدة ، انها تتغير فى الرفع والنصب والجر • نحن هنا وفى وقت واحد ازاء خصيصتين جماليتين ، خصيصة الرنين الموسيقى ، الذى تجلبه نون التنوين ، وهـو حرف رنان يخرج من الخياشيم • وخصيصة التنويع ، التى تعطى النون شكلا موسيقيا ، أو حالة اعرابية ، تختلف فى حالة الرفع ، عنها فى حالة النصب ، أو فى حالة الجر • ان هاتين الخصيصتين تؤخذان معا لا تنفصلان ، وتكسبان معا الفصحى رنينا وتنوعا ، ولأمر ما وضع النحاة ضمتين على آخر الاسم المرفوع ، حين تقول « جاء محمد »، فترمز احدى الضمتين الى التنوين ، وترمز الأخرى الى حالة الرفع ، وهى حالة من حالات التنوين ، قد تتغير مع مواقع الكلام ، فيتغير معها الرمز ، ويصبح فتحتين أو كسرتين •

* * *

ان فكرة الحس الجمالى شىء متأصل فى اللغة العربية ، يمتد الى بنية الكلمـة ومخارج حروفها ووزنها بل وحتى الى ظاهرة الاعراب •

وبلغت قوتها ان فرضت سلطانها على كثير من القواعد المتعارف عليها ، فاللغة العربية تؤثر الايقاع اذ تعارض مع القاعدة ، ويكاد يكون ذلك قاعدة رئيسية ، ان الجمال فوق كل شىء ، الفاصلة فى القرآن الكريم

تهتم بأن ترضى الاذن ، ولو أدى ذلك الى تحطيم قاعدة صرفية أو نحوية ، وفكرة الانسجام الصوتى يمكن ان تضحى بالقواعد الاعرابية •

ان الكثير من الظواهر اللغوية التى تبدو حشوا فى اللغة العربية ، يمكن ان تجـد تفسيرها فى فكرة الحس الجمالى ، فالتكرار والترادف والأحرف الزائدة لا يدل على لفظية وثرثرة على حساب الجوهر والمعنى ، بل هو يصدر عن حس موسيقى ، يعطى للاذن راحتها ، ويوفر لهـا وسائل الايقاع ، ولهذا السبب وصف القدماء اللغة العربية بالاتساع والنصـوع •

ان فكرة الاتباع ليست تعنى حشـوا لفظيا وتعدادا لألفاظ لا غناء فيها ، ولكنها شىء نتد به كلامنا كما قال القدماء ، وهم يعنون أنها ظاهرة جمالية ، تجعل الكلام سهلا ، وتمكن الاذن من التقاطه •

ان ظاهرة الاتباع ترتد الى فكرة الوزن فى اللغة العربية ، وهى فكرة جوهرية يقـوم عليها علم الصرف ونظام المعاجم العربية ، وهى تحيل اللغة العربية الى وحدات موسيقية ، ترتبط برباط الايقاع والمعنى الرئيسى ، الألوان مثلا على افعل ، الصوت على فعيل ، الحركة على فعلان ، وكل ذلك يحيل اللغـة الى مجموعات صـوتية متجانسـة ، ولكنها لا تتحول الى قوالب مصمته ، فداخل كل مجموعة يحدث التنوع ، ان مجموعة « افعل » تضم مثلا الأحمر والأسود والأبيض والأزرق ، وغير ذلك مما يحدث علاقة بين المثال والوزن والجوهر من ناحية ، والمتعدد والألفاظ والأفراد من ناحية أخرى ، أو بعبارة مختصرة « بين المجرد والمزيد » ، ان هذه العلاقة يمكن أن تجد تفسيرها فى وسطية الجوهر والعرض ، التى ترددت فى ثنايا الكتاب تحت عناوين مختلفة •

وهى جمالية خاصة ترضى الذوق العربى ، وتستثمر الى أقصى حد النزعة السامية ، التى تحتفى بحاسة السمع أكثر من حاسة البصر ، ان

اللغة العربية تمتع حاسة الأذن ، وتلجأ الى المـد واللين والزيادة والقلب والترخيم والادغام والاعلال ، وغير ذلك من ظواهر يقصد بها بالدرجـة الأولى ، تنويع الصوت الانسانى وجعله سهلا على حاسة الاذن ، وان حروف اللغة العربية ليست هى الأبجدية العادية ولكنها تنويعات على تلك الأبجدية ، فهناك الحرف المهموس والمجهور والشديد والرخو والمنحرف والمكرر واللين والهاوى والمطبق والمنفتح ، وهناك الحروف التى تقلب الى حروف أخرى من أجل التقارب فى المخرج ، مما ذكره سيبويه تحت عنوان « بـاب الادغام فى الحروف المتقـاربة التى هى من مخـرج واحـد » (١) .

ان العناية بالصوت الانسانى ، هى المسئولة وراء كثير من الفنون الأصيلة ، التى هى تعبير عن ذوق عام ، مثل الانشـاد والترنم وترتيل القرآن الكريم .

ان اللغة تهدينا من طريق آخر الى كثير من الظواهر التطبيقية ، التى سبق ان شرحناها ، ان اللذة كما قلت فى فصل الأدب تبدأ من الحواس ، وخاصة حاسة الاذن ، وتجتهد فى امتاعها عن طريق كثير من المحسنات البديعية ، التى يقال انها مقصورة على العرب ، مثل الترصيع والتسهيم والجناس ، ورد العجز على الصدر والتصريع ، والمؤاخاة بين الألفاظ والسجع والازدواج . وهنا نلتقى مرة أخرى مع تلك الظواهر عن طريق اللغة ، مجسدة فى الترادف والمحاذاة والاتباع وأحسن الأبنية وفصاحة الحرف وفصاحة الكلمـة .

* * *

ان اللغة تحمل فى تضاعيفها المذهب وتاريخه وتطبيقاته ، فالبنية اللفظية ، والعلاقـة بين اللفظ والمعنى ، تفضى بنا الى فكرة الوسطية

---

(١) الكتاب ٤/٤٤٥ .

وملامحها ، ودلالة الألفاظ تجعلنا نصافح تاريخها بمراحله المختلفة ، والحس الجمالى الذى تحرص عليه اللغة تجعلنا نلمس تطبيقات الذوق العربى ، وفلسفته الجمالية بصورة واضحة .

ان اللغـــة العربية تكاد تكون شيئا فريدا بين لغات العالم ، فهى ليست مجرد وسيلة اتصال ونقل خبرات ، بل هى الى جانب ذلك لغة متعالية ، تنتمى الى البنى الفوقية ، وهى أيضا لغة جمالية تجسد الحس الايقاعى عن طريق ظواهر صناعية ، مثل الاعراب وتقريب الصوت والزيادة والحذف والتغيير والقلب والادغام ، وغير ذلك من صناعات تقترب بها من لغـــة الصفوة المنتقاه .

ولعل هذا يدفعنا الى الافتراض ، بأن هناك لغة أخرى بجانبها ، هى لغة الحياة اليومية ، يستخدمها الصغار والموالى والتجار وســائر العوام ، وهى لغة لا تحرص على المستوى الجمالى الرفيع ، ومن ثم فهى تترخص فى الاعراب ، وفى الظواهر الجمالية الأخر .

وهو افتراض يقويه ما ورد فى الصاحبى من « ان الناس لم يزالوا يلحنون ويتلاحنون فيما يخاطب به بعضهم بعضا اتقاء للخروج عن عادة العامة ، فلا يعيب ذلك من ينصفهم من الخاصة » (١) . لقد ورد هـذا النص فى معرض الدفاع عن مالك ابن أنس (٢) ، فقد قيل انه كان يلحن مع العامة ، ان هذا النص يشير صراحة الى مستويين ، مستوى العامة الذين لا يحرصون على الاعراب ، ومستوى الخاصة الذى يحرصون على الاعراب والظواهر الجمالية .

العلماء اذن يترخصون فى اللحن متى ما استعملوا لغتهم اليومية

---

(١) الصاحبى ص ٣١ .

(٢) هو أبو عبد الله بن انس بن مالك ولد بالمدينة سنة ٩٣ هـ وتوفى بها سنة ١٧٩ هـ .

ولكنهم حين ينشدون الشعر ، ويتعاملون على المستوى الثقافى ، فانهم يستخدمون اللغة النموذجيـة ، ويحرصون على خصائصها ، ويعتبرون اللحن ضلالا وكفرا (١) ، أو على الأقل جهلا يزرى بصاحبه ، انهم حينئذ يحتكمون الى « القيمة الشرفية » التى أضفوها على الاعراب •

يتحـدث ابن فارس عن الظروف التى هيأت اللغة العربية لهـذه المكانة ، فقد كانت قريش « جيران البيت الحرام وولاته ، فكانت وفود للعرب من حجاجها وغيرهم ، يفدون الى مكـة للحج ، ويتحاكمون الى قريش فى أمورهم ، وكانت قريش تعلمهم مناسكهم ، وتحكم بينهم » هذا الوضع حول الفصحى الى لغـة نموذجية يصطنعها كل القبائل ، ويتفاهمون بها ، « فقد كانت مع فصاحتها وحسن لغاتها ورقة ألسنتها ، اذ أتتهم الوفود من العرب تخيروا من كلامهم وأشعارهم أحسن لغاتهم وأصفى كلامهم » (٢) •

وقد خلق هذا الوضع تلك اللغة النموذجية ، ذات المستوى الجمالى ، الذى يصطنعه متكلموها ، وكأنهم ينشئون الأدب أو يلحنون الأشعار ، وهى لغة تختلف عن اللغـة اليومية التى يتعامل بها الناس فى البيوت والأسـواق •

وبعد ، فتلك اللغة تحتاج الى أن تفهم من داخلها ، ولن يتسنى ذلك الا لشخص يعيش فى ظلالها ، ويستطيع أن يتفطن الى أسرارها ، أمـا الدخيل حتى لو حسنت نيته لا يستطيع ادراك أسرارها ، فيقلب الحسنات الى سيئات ، لقد تعرضت هذه اللغة الى اتهامات كثيرة ، تبدو متناقضة فى حصيلتها النهائية ، يرون ظاهرة الاضـداد فيقولون ان اللغة فقيرة فى الألفاظ ، وتحتاج الى تحديد المعانى ، ويرون ظاهرة الترادف فيقولون

---

(١) الصاحبى ص ٣٢ .

(٢) الصاحبى ص ٢٣ .

انها لغة ألفاظ ، تحتفى باللفظ على حساب المعنى ، ويرون ظاهرة التقارب بين المـاديات والمعنويات ، يقولون انها فقيرة الخيـال لا تستطيع أن تشطح بعيدا ، ويرون خاصية التجاوز والحرص على المستوى الجمالى ، فيقولون انها بعيدة عن الحياة اليومية .

أما من يعيش فى ظل تلك اللغة ، ويدرك سر ألفاظها ، ويتفهم فلسفتها الكامنة وراء ظواهرها ، فانه يعرف ان اللغة لا تبوح بأسرارها الا لمن يدرك هذه الظواهر ، وهناك الفرق بين كاتب وكاتب ، كاتب يصل الى عبقرية اللغة فيكشفها لجمهوره ، وآخر لا يصل الى ذلك فيحكم على نفسـه بالعزلة والسكوت .

أيها الملك ان أحكام دينك سوف تفسد يوما ما تقـدم العلوم وانطلاق العبقرية ، وحين يصغر شأن الناس فسـوف يصـغرون من شأن الله بما يناسب أحجامهم وسوف ينتهى بهم الأمر الى نكرانه » • ثم تخبره أن أجدادها نسوا أنفسهم ليكبر رعاياهم ، فأخذ كل منهم يضيف الى السد شيئا ، بينما هو يهتم بعمل تمثال كبير جـدا لشعب صغير جـدا •

وغير ذلك من أفكار تمثل نزعة حافظت عليها بلقيس وأخوها أعراب الذى أورث الجزيرة العربية اسمه ، وهى نزعة لا تقلد الطبيعة ، ولا تبالغ فى المـاديات والحسيات ، ولا تعتمد على عظمة بشرية فارغة ، بل تؤمن بحكمة الهية ، تعمـل على اصـطلاح معها ، وهى حكمة ليست شريرة ولا غيورة تضيق بالعمل البشرى ، بل تشجعه لأنها تتعرف من خلاله على ذلك الشعاع من روحها •

* * *

وبعد ••• ان قصة نيرفال هـذه مجرد مثل توضيحى ، ولا يزال الشكل المقترح ينتظر الفنان العربى ، الذى يتذوق سر اللغـة العربية ، ويعرف روح التاريخ العربى ، فلا يخلطه بأساطير الفينقيين والعبريين والدروز •

وقد تمثل هذا الفنان فى نجيب محفوظ ، وخاصة فى مرحلته الأخيرة فى « ملحمة الحرافيش » ١٩٧٧ م ، وفى « ليالى ألف ليلة » ١٩٨٢ م ، وهى مرحلة يستوحى فيها التراث ، لا فى الموضوعات فحسب ، بل وفى الشكل الفنى •

وليس عجيبا أن يتأخر هـذا الاكتشاف عند نجيب محفوظ ، فقد كان لابد أن يمر فى طريق المريد حتى يصل ، عليـه بالصبر فالطريق طويل وعليـه بالتأمل الهادىء فالسر لا يبيح نفسـه الا لمن يقدر عليه ، بدأ فيمـا يسمونه بالمرحلة الواقعية ينجذب نحـو الأماكن الشعبية ،